قبس ..
من وهج الروح

رواية

بهي الدين عوض

خيول أدبية

سلسلة إبداعات أدباء الشرقية

تصدرها محافظة الشرقية بالتنسيق

مع مديرية الثقافة

برعاية كريمة من سيادة المستشار يحي عبد المجيد محافظ الشرقية تحول حلم الأدباء إلي واقع ملموس ، وها هو الاستثمار الثقافى ينتقل من حيز القول إلي ميدان الفعل لتخطو على درب الحركة الثقافية والأدبية بالشرقية (خيول أدبية) ذات صهيل شرقاوى أصيل . تعزف على أوتارها تنويعات إبداعية فى مختلف ميادين وفنون الأدب العربي . ولاشك أن هذه السلسة الأدبية الجديدة سوف تحدث أثرا طيبا فى تفعيل حركة الإبداع الأدبي والفكري فى محافظة الشرقية الغنية بأدبائها ومبدعيها كما كانت على مر التاريخ .. حيث قدّمت أعلاما استطاعوا أن يبرزوا الوجه الثقافى والحضاري لهذه المحافظة العريقة أمثال يوسف إدريس وصلاح عبد الصبور وعزيز أباظة ومرسي جميل عزيز ود. محمد مندور .. وآخرين .. حق لنا أنا نفخر ونفاخر بهم ، وأن نفخر بمن على دربهم يسيرون بخطيً واثقة فى طريق الإبداع الإنساني الهادف والنبيل . كما يحق علينا أن نفخر بقادتنا الذين يؤمنون بمنظومة العمل الثقافى فى تنمية وتوجيه فكر مجتمعنا .

يطيب لي أن أنقل شكر وتقدير الأدباء لقائد مسيرة التنمية الشاملة بالشرقية على هذا التوجه الحضاري والذي يؤكد على صدق إيمانه بأن الاستثمار الثقافى أعظم استثمار قومي للوطن ، تواصلا مع من يرسمون وجها مشرقا لمستقبل الثقافة والإبداع فى مصرنا الحبيبة .

والله الموفق والهادي إلي سواء السبيل

فتحي عقل

مدير عام الثقافة بالشرقية

خيول ادبية
سلسلة غير دورية
تعني بنشر الإبداعات الشرقاوية
رواية (قبس من وهج الروح)
بهي الدين عوض
الطبعة الأولي
مارس 2006

إهداء

إلى ذلك الهاتف

الذى يدوى فى أعماقى.

ويدعونى إليه.

فاندفع بكلى

إليه .

بهى الدين عوض

-1-

كشف القمر عن وجهها القمرى ، صار القمران فى لون البهاء قال وهو مشدود إلى عينيها المسافرين فى بحر من المعاني الجميلة :

كلما جاء وقت الرحيل شعرت برجفة تهزني من الأعماق أخذت عينيها من بحر المعاني وقالت وهي تقترب منه :

- أتسمي هذا رحيلاً ؟!

سكت هنيهة وعاد يقول :

- لم أقصد الرحيل بالمعني المقصود.. وإنما أقصد الذهاب ثم الانتظار لموعد أخر .

رنت "ضحي" إلى موج النهر المتألق بالضياء . جذبها هاشم إليه ومضي يقول وهو يشير إلى أمواج النهر المنسابة برفق :

- هذه الأمواج تسافر إلي مستقرها يا ضحي .
- أي مستقر تقصد يا هاشم ؟
- إلى المصب.. وهناك يرسم النهر بطميه ومائه أثره الباقي.. ليكون رمزاً لوجوده، يرسم لساناً فيدخل اللسان جسمه بين الاثنين بين ماء النهر العذب وماء البحر المالح ويسكت هاشم قليلاً ثم يقول وهو يلقي ببصره ناحية الموج الأتي:
- ويبقي أن تسالينى عن المنبع .

تمد ضحي بصرها إلى الموج المسافر فى سكينة وهدوء.. يلتصق بها هاشم ويسترسل وهو يشير بيده إلى الماء:

- النهر يأتي من بحيرة المنبع الأول التي هى لحظة ميلاده بعد أن أخذت حليب مائها من رحيق الشمس التي غمرت السماء بدموع المطر. وهذه رحلة الميلاد الأول للنهر يا ضحي.

ويتوهج وجه هاشم بنور غريب ويمضي قائلاً:

- وبعد ذلك يأخذ الماء رحلته عبر آلاف الأميال يتسع ويضيق أحياناً.. ثم يتعرج وينقلب سيولاً أحياناً أخرى.. ثم ينتظم ويستقيم فى رشاقة.. تلك هي رحلته عبر الزمان الأبدى ..

وتبرق عيناه ويستطرد وكل ما فيه يرتجف :

- وهكذا يحقق النهر سيرته وهي ميلاد .. وحياة ومنتهى.. ومنتهاه عندما يعانق البحر ويسلب البحر منه قضيته. لأن البحر هو الأوسع مهابة :

يسكت هاشم عن الحديث.. وتغيب عيناه فى فكر عميق. فتقول ضحي فى صوت خافت وقد هاجها الأمر شجونا.

- لقد أخذت مني روحي بهذا الكلام يا هاشم ولا أدري ما الذي سيبقي لي بعد ذلك .

يلملم هاشم شمل نفسه .. ويرأب ما تصدع منها ثم يعود إلي ما كان عليه فتجرى علي وجهه ابتسامة وضيئة ويقول :

- معذرة يا ضحي.. لا أدرى ما الذي أصابني؟ شئ فاجأني وسيطر علي كل مشاعرى ودفعني إلى هذا الأمر دفعا مدوياً.

- وأنا أيضاً لا أدري كيف احتواني هذا الحديث الذي أخذنى إليه أخذا، لقد رسمت كل كلمة فيه صورتها فى رأسي.

وتبلغ ريقها وتمضي تقول :

- والآن ... تتشكل فى مخيلتي صورة ذلك المنبع.. اتخيلها وقد صارت موجا كاسرا.. هادرا.. غير أن المجرى الحبيب يدعو الماء إليه. فيجرى الماء. ويصير حركة متدفقة بالحياة .

وتمور الأفكار في رأسيهما ، ويجيش الصددان بالمشاعر، وينبض القلبان بخفقات متلاحقة وفي مرتسم الكون.. ينساب القمر علي مسرى العيون وتدور حوله سحابة شفيفة نابعة من لون بهائه.. ويصير مرتسمها فى محيط دائرته.. وتلامس أهداب القمر. فيصير الكل أبيض فى أبيض بلون البهاء كله . وتهيم طيور الليل التي فى لون مسار رحلته .. وتهتف بنداء السماء وهي تسبح فى الكون الرحيب، وتتراقص الأشجار هفيفا.. والأغصان حفيفا ويوغل الليل فى مسيرة عمره، ويولج النور الوضاء فى ساحته. يقبض هاشم علي يد ضحي الرقيقة .. فتنسدل علي وجهها خصلة من شعرها الليلي . فيطرح شعرها علي وجهها

لمساته.. ويمتزج الكل فى الكل.. نور القمر.. ومشاعر القلبين . . .
فيتألق قلب هاشم هياما.. ويكاد أن يقبل عليها بكل ما فيه غير أن
عذوبة ما كانت عليه تقيد رغباته فيأخذها هاشم إلى باب دارها
ويودعها وينصرف.
وكان الليل آنذاك قد اقترب من منتصف عمره والقمر علي
وسادة السماء يبوح بنوره .

سار هاشم حثيث الخطى وهناك علي الجسر الذي ينقله
من قرية ضحي إلى قريته وقف طويلا وراح يمد بصره إلى امتداد
طوله.. رآه قد طال واستطال دفع خطاه عليه، دوى ا لخطو خطاه،
وأخذ يسير ويسير وكلما سار كلما مارت فى رأسه الأفكار،
وأخذت ترسم فى مخيلته حلمه المستحم فى بحيرات النهر
المتدفق.
"ما أسعدك يا هاشم إذا صارت ضحي زوجة لك.. أي سعادة تلك
التي تنعم بها عندما تكون ذلك"
ويعبر هاشم الجسر الفاصل بين القريتين .. ثم يعود بعينيه إلى ما
ابتدأ من الجسر.. ويمد نظراته إلى ما خلف الجسر.. فيرى دار
ضحي تضوى تحت نور القمر..
فتعاوده الخواطر "ما أروعك يا ضحي .. أيتها الفتاة العذراء.. كل
شئ فيك رائع .. وأجمل ما فيك روحك المتدفقة بالحياة" ويضحك

قلبه ويخاطب نفسه "أبوك لن يعترض علي هذا الزواج.. فالفتاة من أسرة طيبة . وهي التي أختارها قلبك ما أعظم أن يحث هذا الذى أتمناه"

ويختال الخطي علي الطريق.. حتى تلوح قريته تحت عرشها القمرى.. فتبدو أكثر وضاءة ورحابة ويدخل القرية ويجتاز مسالكها وحواريها. ويفتح مزلاق الباب بهدوء.. فينفتح الباب عن ساحة الدار الرحيبة التي تعز بالبنين والبنات.

صحا من نومه علي صوت أبيه وهو يرتل قرآن الفجر، قام وتوضأ، وانسل إلى حجرة أبيه فى هدوء، وجلس بجواره، وراح يرهف السمع إلى صوته العذب. وكلما وثبت نظراته إلى ملامح وجهه رآه فى روعة وبهاء وما أن هام الرجل فى آيات الله البينات حتى سالت عيناه بالدموع. أخذ هاشم يطالع الدموع المنسكبة علي وجنتيه، لقد انكسر حاجز الزمن وامتلأت النفس بالسكينة والخشوع، وسلكت الروح محراب عالمها العلوي .

وبعد ذلك توقف القلب الخاشع عن القراءة وعادت النفس إلى وجودها الحسي فالتفت أبو العزم إلى أبنه هاشم وقال:

- منذ متي أتيت إلى هنا يا ولدى العزيز؟

حدق هاشم فى وجه أبيه ولم ينبس ببنت شفة.

قام أبو العـزم مـن موضعه انفـردت هامتـه الفارهـة المهيبـة انسحب إلى مشجب الحائط وأخذ بردته وفردها علي منكبيه فاتسق عنقه الرشيق مـع قامتـه انحنـي قليلاً إلى ركن الحجـرة وأخذ عصاه وقال وهو يجذب هاشما إليه: هيا بنا لقد حان وقت الصلاة.

نزل الاثنان مـن الـدور العلـوي علـي السلم الخشبي ، وكلما خطا الأب خطاه كلما تعالت تسابيحه ولم ينفك لسانه قط عن التكبير والتهليل. وفي فناء الدار كان الكلب "سبع الليل" رابضا فى وسطه يرفع أذنيه ويدور عيناه حول القادمين مـن أعلـي. وقف أبو العزم أمـام "سبع الليـل" وداعبه بعصاه. ظل الكلب سـاكنا ولم يتحرك قيد أنملة، ضحك أبو العزم. هاشا باشا بكلبه الوفي صاحت الديوك مستقبلة الفجـر الأتـي انطلـق الأذان جمـيلاً عـذباً فيـه حـلاوة وطلاوة قال هاشم :

- الشيخ أدريس يرفع الآذان.. يا أبي.

ابتسم أبو العزم وقال مازحاً:

- أتسميه شيخاً وهو فى مقتبل عمره الفتي؟

كل من فى القرية يدعونه بذلك.

جذب الرجل أبنه إليه وأسرع به الخطي، وكانت القرية قد صحت وغص مسجدها بمريديه. أم الشيخ إدريس المصلين وتلا القرآن بصوت رخيم أسر.. وكلما ذاب وجدا فى تلاوته كلما

تقطرت عيناه بالعبرات.. وما أن أنتهي الشيخ من الصلاة حتى أقبل المصلون يحيونه فى ألفة ومودة.

وقال أبو العزم وهو يملأ عينيه بالشيخ إدريس الشاب الفتي:

- بارك الله فيك يا ولدى.. القرية تفخر بك دائماً.. أيها القلب الطيب.. والنفس الصادقة.

ومضي الكل إلى ما جاء منه. ودخل الشيخ أبو العزم الدار وفى صحبته ابنه هاشم، وكانت الدار قد عمت فيها الحركة والنشاط فجلست زوجه نعمات فى صحن الدار تسير دفة الأمور وعلي جانبيها وقفت ابنتاها كزهرتين يانعتين. انشأ أبوم العزم يملأ عينيه بهما.. ويبتسم .. وتتسع ابتسامته بالرضا ثم يقبل عليهما ويقبلهما فى رأسهما وكل ما فيه ينطق بالسعادة.

قالت نعمات بعد انصرافهما:

- قلت لك كثيرا نماسك أمام بناتك.. لا تكن خفيف القلب معهما .

ربت أبو العزم علي كتف زوجه وقال ضاحكا: وواحدة مثلها لك وقبل زوجته من وجنتها. تدفقت دماء حارة فى جسدها جري فى كيانها ذاك الحب الصادق المعتق بخمر السنين فراحت تقاوم مشاعرها الحارة وتقول بصوت هادئ :

- غريب أمرك .. يا شيخ ؟

وقامت نعمات من علي مقعدها وفردت قامتها وجعلت تلقي بأوامرها علي من فى الدار، وكان الكل قد صحا وتحرك. وتناثرت أسراب الأوز والبط والدجاج، واندفعت الشياه تثغو فى حظيرتها إلى أن خرج كبشان كيران وأخذا يتناطحان فى مودة. فيلتصقان ببعضهما البعض ويلامس القرنان القرنين ثم ينفكان.. وبعد ذلك يعودان كما كانا عليه من قبل إلى أن خرجت نعجة مليحة مكتنزة اللحم واندست بينهما فانسحب الكبشان قليلاً إلي الخلف ثم فى وثبة سريعة اندفع إليها الكبش الصغير والتحم بها. فهجم عليه الكبش الكبير العفي المغزول القرنين وأطاح بالكبش الصغير من أمامها. فلاذ الكبش الصغير بالفرار .

ضحك أبو العزم بملء فمه وراح يقهقه فجاءت إليه زوجه تسأله عما حدث فيبتسم فى وجهها ولا يتكلم فيعيد عليه السؤال فيضحك ولا يتكلم. تزم نغمات شفتيها وتنصرف من أمامه وهي تكتم غيظها، ويلاحقها بنظراته هاشا باشا بكل ما حدث فى ذاك الصباح الندي.

❖ ❖ ❖

رمقها وهي تسحب بقرتها التي فى لون لونها، انتصب من مكانه واقفا وراح يعاود النظر إليها. "هي يا هاشم.. ولكن ما الذي دعاها إلي الخروج مبكراً؟! إنها لا تخرج إلا وهي فى صحبة أبيها

أو أمها" وأخذ هاشم يرسم المعاني ويسطر الأسباب إلى أن طوى كتابه الذي بين يديه ودسه بين فرعي جذع شجرة الجميز التي يستظل بظلها. تساقطت فوق رأسه بعض ثمرات الجميز فأخذها ومسحه بمنديله والتهمهما وسحب خطاه إليها .

وكانت الطبيعة آنذاك تباشر ميلاد يومها حيث خرجت قطعان الأغنام تجري وتمرح وتثغو وينادي ذكورها إناثها، امتدت الأرض الملفعة بعمائمها الخضراء اتساعاً أسرع هاشم الخطي وفي رأسه وجد وشوق عارم لرؤياها . " أتراها يا هاشم فى وضح النهار ؟ أتنعم بوجهها الصبوح ؟ أتحكي لك عيناها أسرار ما فى قلبها ؟ " وأزداد قلبه ضراما وهو يجهد قدميه بالمسير إليها.

وصل إلى القنطرة الموصلة إلى قريتها، وما أن عبرها واتجه إلى ناحية قريتها حتى اعتراه شعور بالخوف والحزن معا، تثاقلت خطاه، لمح دارها، شم رائحة أنفاسها فيه، ودغدغت هذه المشاعر جوارحه، فجرت قدماه إلي موضع وجودها. رآها تقف بجوار بقرتها الصفراء الناصع لونها وتداعبها، تمسح بيدها علي غرتها البيضاء التي فى رأسها والبقرة فتمسح بعنقها علي كتفها، وضحي ممتلئة بالسعادة بما تفعله والبقرة تخور نشوى بتلك المداعبة. وقف يتأمل ما يحدث والشمس تنثر دوائر من نورها بين

ظلال الشجر. تقدم إليها بهدوء باغتها مفاجأة حضوره ، وقفت مشدوهة تلوذ بالصمت، قال في خجل : معذرة .. لم أتعود هذا التصرف ولكن الشوق إليك هو الذي دفعني إلى ذلك .

❖ ❖ ❖

- إذن وجودى هنا.. غير مرغوب فيه .

وهم بالانسحاب إلى الخلف.. ولكنها سرعان ما أخذته بيدها وعقبت:

- أتأتي . . . وتنصرف بهذه السرعة؟!

سكت هاشم مليا ثم قال :

- كنت فى الطريق.. رأيتك .. فجئت لأعرف السبب الذي دعاك إلى الخروج مبكراً دون صحبة أى من والديك .

مالت برأسها إلى الأرض وكادت الدموع تنفطر من عينيها قبض علي يدها وتساءل علي عجل:

- ما الذي حدث يا ضحي؟!

- لا شئ.. مجرد .. مرض مفاجئ أصاب والدى .

اقترب منها وكابد ما تكابده

رمقته ضحي بنظرة خاطفة وقالت :

- الحمد لله علي كل حال.. ندعو الله لوالدى بالشفاء فهو الشافي والعافي ولا شفاء بدونه.

- شفاه الله يا ضحي وعفاه وعاد إليكم بالصحة والعافية.

تناغمت عن قرب أغنيات الفتيات وهن يزرعن أرجلهن في الأرض.. وتتدافع حولهن طيور "أبو قردان" جماعات بيضاء فى حليب ألوانها، تمد مناقيرها فى الطين المحفور بماء الري. تطلع هاشم ناحية الأفق رآه يلقي بأسراب سحبه أخرج نظراته مما كانت فيه وعاد إلى ضحي يقول لها:

- أنا في خدمتك فى أي أمر من أمور الحقل .

- شكراً لكل يا هاشم. كل ما أطلبه منك ألا تهمل المذاكرة فأنت الآن تقترب من دخول الجامعة .

هزته كلماتها الدافئة الودودة "إنها تريدك دوما فى نجاح.. تريد لك المستقبل الباهر يا هاشم" افتر ثغرها عن ابتسامة مضيئة وعادت تقول :

- وتدخل كلية الطب.. ألست تريد ذلك يا هاشم؟ لقد حدثتني كثيراً فى هذا الأمر.

- هذا بالضبط هو الذي أريده.. هذا بالضبط هو الذي أريده. وانفلت لسانه يقول بحماس :

- وتكونى الزوجة.. كم أتمني أن أنال هذا الشرف العظيم يا ضحي؟! جرت علي وجه ضحي فرحة ممزوجة بالدهشة .. ثم لاذت بالصمت وهم أن يأخذها من يدها ويهيمان معاً فى دنيا الأحلام السعيدة. ولكن.. فجأة ودون أن يتوقع . . . جاء ابن عمها منصور بقامته الفارهة وقال وهو يتوسطهما ويفصل بينها:

لمحتك يا هاشم وأنا فى حقلي فعدت إليك وقلت فى نفسي فرصة طيبة أن أسعد بلقاءك . هنا فى حقل عمي وفي قريتنا هذه. ولم يمهل منصور هاشماً بالرد فمضي يقول:

- ولا أدري لماذا خرجت ضحي ابنة عمي وحدها فى ذلك الصباح وبلع ريقه واسترسل وهو يصوب نظراته إليها :
- ابن عمك منصور يا ضحي هو الأولي منك بالخروج إلى الحقل ومراعاة مصالحه.. كل ما يحتاجه أنا كفيل بذلك يا ضحي.
- وفي صيغة الأمر:
- عمي فى حاجة إليك الآن فى البيت يا ضحي .

انسحبت ضحي فى هدوء وغادرت الحقل وهي تحبس مشاعرها فى قلبها الرهيف . والتفت منصور إلى هاشم وعاود الحديث :

- فلنشرب الشاي سويا هنا فى حقل عمي أو إن شئت في حقلي وهو قريب من هذا المكان.. فأنت الآن فى ضيافتنا.

ومضي منصور يسرد الأحاديث بصوت جهورى وكلما فاض بحديث زم شقتيه ودخل فى حديث آخر ولم تكف نظراته عن النظر فى وجه هاشم. أما هاشم. فكان قلبه قد ذهب مع من ذهبت.

❖ ❖ ❖

امتدت الأرض أمامه رحيبة تتلون رؤوسها بألوان ما فيها ، والنهر علي امتدادها يمتد أعماراً مديدة ، وكل من في القرية قد خرج مشمراً عن ساعديه فالمحاصيل تدعو إلى اللقاء وندوف القطن البيضاء تبسط بهاءها علي مرمي البصر ، شده غناء عذب تمور نشوة وسعادة انتبه إليه ، وجد فتحية الصبية العفية السمراء المليحة المياسة القد هي التي تغني وغناؤها قد صار لحنا عبقريا فى المكان كله وأخذت تقود رفيقاتها لالتقاط بشارات الحقول البيضاء وهن مثلها فى نشوة عارمة. وقف هاشم يتأمل ما هى فيه من سعادة غامرة ويخاطب نفسه "المحصول قد زاد وربا.. وفقك الله يا بنت قريتنا الحبيبة إلى السعادة والهناء.. لقد أحبك أهل القرية جميعهم وجميعهن علي ما أنت فيه من عفة وطهارة وصدق نوايا.. فأنت مازلت تجاهدين من أجل أبيك المريض تزرعين

وتروين وتحصدين.. وما أروع فتاك المخلص الوفي الذي أعطاك قلبه وأعطيته عفتك وجمالك الشذي وقدك العابل"

وتترنم فتحية بالغناء وترتفع من ورائها حناجر صقلتها لفحات الشمس .. وطهرن أجسامهن بعرق الكفاح الصادق ويشده صوتها إليه شدا، يسابق هاشم خطاه هناك إلي مرمي البصر المعصوب بوهج الشمس، وهناك يري نساء وفتيات قريته قد احتشدن من أجل الأرزاق.. بعد عام من الكفاح والصبر والموالاة.. وقف هاشم بالقرب منهن وطالع رؤوسهن التي تتألق خدودهن تحت ضوء الشمس ويسيل العرق المقطر بالعمل. أما فتحية عندما رأته فقد خفت صوتها قليلاً إلا أن النبرات العذبة ظلت تسلك طريقها فى عذوبة حانية. حيهن هاشم ثم تركهن وجلس تحت ظل شجرة تستدير أمامها ساقية، وتحط طيور بيضاء وخضراء وصفراء علي حوافيها ، يسند هاشم ظهره علي جذع الشجرة ويتأمل الأيدي الممتدة إلي الأعواد الجافة وهى يلتقط بأصابع صلبة شعيرات فى لون البهاء . وتمر أمامه صبيات يتحزمن بأحزمة من خوص النخيل ويملأن جلابيبهن بما جئن به من ندوف . ارتسمت فى مخيلة .

هاشم كل تلك الصور . ونقشت حروفها وسطورها رموزاً
من المعاني الجميلة فخرج من مرسوم الجموع التي يشاهدها إلى
مرسوم نفسه .

" أتأتي ضحي يا هاشم .. هنا لترى ما تراه الآن لتري معك هذا
التألق .. ولتستمتع بالندوف البيضاء التي مثل قلبها. وقلوب تلك
الصبيات الحسان.. وتهنأ بوجود فتحية التي تملأ الدنيا بالغناء.. إن
صوتها الدافئ العذب يسرى فى حنايا تقسي بين لحمي وعظمي
ودمى.. لأنها لا تغني إلا للأرض وللناس وللحب.. قلبها ينبض
بالحياة.. وبمن نحب" ويسكت قليلاً ويزفر.. ويعود إلي نفسه :

"آه يا ضحي لقد تألمت كثيراً منذ أن فعل منصور ما فعله معي
ومعك أيضاً لقد أصابني بجرح غائر".

ويتطلع هاشم إلى المرامي البعيدة.. وتأخذه نظراته إلي
ناحية قريتها الملفعة برؤوس النخيل فيصطلي قلبه شجناً "إنها
بالتأكيد فى منزلها ومعها ابن عمها منصور" ويزم شفتيه
وتجري مسحة من الأسي علي وجهه.. وما أن يغرق فى متاهات ما
يفكر فيه حتى يسمع تغريد يمامة رهيفة ينساب هديلها عذوبة..
فينشرح صدره ويتجلي قلبه ويسرى فى حناياه وجد وشجن
فيردد إلى نفسه:

" لا يا هاشم.. منصور هذا هو ابن عم ضحي.. وهو أحق بولاياتها بعد أبيها فله حق صلة الرحم وهو الجدير بأن يرعى شئون أسرتها .. وما فعله هو الصواب بعينه.. هو الصواب بعينه لقد أخطأت فى حقه يا هاشم .. واتهمته بما لا يستحقه.. وما كان لك أن تفكر فى ذلك .".

ويخرج هاشم من شوارده علي صوت صاحبه الشيخ إدريس وهو يقف أمامه ويقول:

- الشيخ شاهين قد اشتد عليه المرض.

- عرفت ذلك من ضحي .

- أخبرتك إذن بما أصاب أباها.

أطرق هاشم رأسه فى الأرض حزنا.

عاود إدريس الحديث :

- إنني أعرف كل شئ يا هاشم .

تساءل هاشم فى دهشة :

- ما الذى تعرف؟!

- أعرف ما تعرفه وربما أكثر.

حدق هاشم فى وجه الشيخ إدريس رأي فيضا من المعاني الجميلة ينطق بها وجهه فسأله :

- وضح يا شيخ إدريس .

- ضحي التي تحبها ويهيم قلبك بها حباً.

وتدفقت الكلمات علي شفتي إدريس حزنا ووجدا وشجنا وهو يقول :

- أحببت كما تحب .. وكان حبي ذلك. سجنا لم أبح به لأحد وحتى أنت أقرب الناس إلى نفسي لم تعرف شيئاً عن هذا الأمر وما أن انتهي إليه من مصير.

ويتنهد إدريس حزنا ويوغل فى الحديث :

هو ذلك الحب الذي دفنته فى بئر عميق ولم أجد من يخرجه من أعماق هذا البئر .

تساءل هاشم متلهفاً :

- وما الذي أوصلك إلى ذلك .. فهل كانت لا تحبك؟!

- كانت تحبني الحب كله يا عزيزى هاشم .

- إذن ما الذي حدث؟!

سالت عينا إدريس أدمعا وهو يقول :

- أمي المريضة التي تحتاج إلى الدواء . فلقد صرفت علي مرضها كل ما كنت أملكه من مال والفتاة كانت فى عمر الزواج وأبوها يدعوها إليه بقسوة وغلظة .

ويعود إدريس إلى تنهده وحزنه ثم ينفك قائلاً :

- وأخيراً تزوجت المحبوبة .. وطار الطائر المغرد .. واختفى هذا الحليم الجميل الذي كنت أحلم به .

- انتفض هاشم قائما من مكانه وقال فى تأثر :

- لقد أخطأت كثيرا يا إدريس .. ما كان لك أن تستسلم ما كان لك أن تنتهي إلى ذلك الأمر .

حدق إدريس فى وجه هاشم طويلا فقرأ فى عينيه سر ما كان فيه من أوجاع. فعاود إدريس الحديث بعد أن خرج من دائرة الغيوم

- ولم أخرج من هذه الصدمة.. ولا من هذه المحنة إلا على هاتف يدعوني إلى القرآن .. فلذت بهد ورحت أقرأ القرآن فى الصباح والمساء وفي وقت السحر حتى أخرجني الله من محنتي .. وفتح لي طريقاً جديداً كنت فى أشد الحاجة إليه .

وسكت إدريس ملياً وتألقت عيناه باشراقات وضيئة وجعل يسرد الحديث :

- ما أعظم التضحيات عندما تكون من أجل الآخرين ومن أجل المبادئ والمثل العليا.

- وتغيب عينا إدريس عن وجهه ثم تعودان إليه وهي أكثر نفاذا وإشراقا ويحدد المعاني :

- أنا أجاهد يا عزيزى هاشم من أجل أمي المريضة التي تحتاج إلى الدواء.. والرعاية باستمرار.. لقد صرفت عليها الكثير والكثير وأنا سعيد بذلك .

وفي سعادة غامرة يقول إدريس :

- وفي ذلك اليوم فى الصباح والطيور تخرج إلى أرزاقها أخذت برأس أمي ووضعته علي صدري وأمسكت بكوب اللبن ورحت أسقيه لها قطرة.. قطرة .. وبعد ذلك.. جففت فمها بيد حانية ثم أعطيتها الدواء وأنا أربت بيدي علي كتفها .. وأملأ عيني بكل ما فيها .

فنظرت إلي واستقرت نظراتها فى أعماق قلبي..
وأنشأ يقول وعيناه تذرفان الدموع:

- ما أسعدني فى هذا الصباح .. يا صديقي هاشم الفرحة.. تأتيني من كل مكان .

- وقف هاشم مشدوها.. أما هذا الحديث الذي سبر أغوار نفسه .. واستقر فى كل حناياه فيتعانق الصديقان .. ثم يلوذان بالصمت عند سماع غناء فتحية وهي تغني للناس .. وللأرض وللقلوب الندية العذبة والمعذبة بأوجاع الحب .

جلس الشيخ أبو العزم فى البراح تحت ظل نخلتين باسقتين تتدلي من نحر أحدهما سبائط البلح والأخرى فارهة تمد جريدها كحد السيف .

لاحت فى وجهه ابتسامة عريضة "واحدة هي التي تأتينا بالبلح الذي فى لون الورد أو في لون خدود الصبيات الحسان .. والثانية لم تطرح بلحاً لأنها ذكر .. والحياة هكذا تكون .. ذكرا أو أنثي منذ أن خلق الله آدم وحواء" واتسع وجهه بابتسامة مشرقة عندما تذكر زوجه نعمات "فهي التي أنجبت لله ذرية عزيزة يا أبا العزم .. ثلاثة من الذكور وأثنين من الإناث .. حمدا لله يا واسع النعم يا رزاق يا كريم ".

عاين أبو العزم ما أمامه رأي القرية عن بكرة أبيها قد خرجت ودبت فيها الحياة تجوال وغناء وجولات وصولات. والحقول علي مدي البصر قد غصت بالرجال والنساء والفتية والفتيات يأتون ويروحون، وظهور الدواب قد حملت بمحاصيل الحقول. رفت علي وجه أبي العزم الفرحة وهو يراجع حصاد قريته فى هذا العام، فالقطن قد زاد عن ذي قبل وأتي بعائد لم يتوقعه أحد وكذا الأذرة والأرز بنفس الوفرة والزيادة .

توقف تفكير أبي العزم عندما سمع زغرودة حلوة فرأي أم فتحية فى صحبة زغلول خطيب ابنتها يهرولان إليه وما أنا أتياه حتى قال زغلول والسعادة تنطق من عينيه :

- عقد قراني علي فتحية سيكون غداً بمشيئة الله يا شيخنا العزيز.. وأطمع أن تكون الشاهد الأول علي هذا الزواج .

- يسعدني ذلك يا ولدى العزيز .

وأضافت أم فتحية فى مودة :

- البنت فتحية عملت للي عليها.. وأكثر يا مولانا .

وبلعت ريقها ومضت تقول :

- البنت كانت بتصرف علي أخوتها الصغار منذ موت أبيها.. ولم تقصر وكانت تعرق وتتعب حتى تسعدهم .. وحقها علينا أن نوفي لها الدين.. وندخلها بيت العدل يا فضيلة الشيخ عقب الشيخ أبو العزم وكل ما فيه يجيش بالمودة :

- خير ما فعلت يا أم فتحية. بارك الله لك فيها وفي هذا الزواج وتطلع إلى زغلول مازحا وهو فى جلبابه الأبيض الفضفاض

- استظل علي هذا الحال بعد الزواج يا زغلول؟

- فتحية يا فضيلة الشيخ تساوي الدنيا وما عليها .

رمقته حماته بنظرة ممتلئة بالإعجاب وعقبت:

- أنت الخير والبركة يا زغلول .

ما أن سمع أبو العزم هذا الحوار الحميم حتى انتصب واقفاً وأخذ زغلولا بين ذراعيه متمتماً والدموع تسيل من عينه:

- بارك الله فيك يا ولدى العزيز.. وسدد الله خطاك دائماً بالخير والبركة .. والسعادة والهناء.

انصرف زغلول وحماته إلى الحقل.. وتجمع عدد من أهل القرية مع أبي العزم جالسوه وأحاطوه بمزيد من الحب وأخذوا يسألونه عن شئون القرية والدنيا وهو يجيب وهم يرهفون السمع إلى كل ما يقول.. وفى ختام الحديث تساءل أبو العزم عن الذين يزمعون الزواج فى صيف هذا العام . أجاب إدريس :

- حوالي عشرة أفراد.

لاحت ابتسامة من الرضا علي وجه أبي العزم فسكت مليا ثم عاد يقول:

- وأنت يا إدريس.. متى يكون العزم علي الزواج؟

أحني إدريس وجهه إلى الأرض ورد بصوت خافت:

- أمي المريضة هي الأولى بالرعاية.

ساد الجميع الصمت .. قطع الشيخ أبو العزم هذا السكون قائلاً:

- الله موجود يا ولدى العزيز.. فكر فى الزواج والله سوف يغنيك.. ويزلل لك كل صعب لأن ما تفعله هو الخير.. والله يعين كل من يفعل الخير.

كثرت الحركة .. وعمت الجلبة. وصوبت الشمس سهامها نحو الغروب.. وتهيأ الغسق لاستقبال درة الأفق. وقام الشيخ أبو العزم هو وأهل القرية إلى الصلاة.. ثم توجه إلى داره وكانت الدار أيضاً تعم بالحركة والنشاط. فرش حصيره فى وسط الدار.. وأمسك بمسبحتيه وأنشأ يسبح لله الحي القيوم.. وكل من فى الدار يتهيأ لوليمة العشاء. مدت المائدة وعليها الرزق من طيبات الله وبعد أن أكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً .. ملأ الشيخ أبو العزم عينيه بمرآة زوجه وأولاده ثم تركهم وانصرف إلى الخارج ليزور أهل قريته فهذه كانت عادته ولم ينفك عنها طوال حياته .

صعد هاشم إلى سطح داره ، وكان القمر يجوب مساحات النور بعد أن أسدى الليل للقرية هدأته، فكل شئ ينحني إلى السكون ليذوق طعم الليل السجى . أخذ هاشم هدأة الصمت وتربعت فى قلبه وجدا وشجنا، استحوذت ضحي علي فكرة بطيفها الشذى وصوتها الندى ، تتابعت صورتها فى مخيلته ألوانا وأشكالاً وراحت تسرد عليه فى مساحات الزمن أحلاماً وآمالا .

طفق هاشم يتأمل وجه القمر تارة فتسيل عيناه أدمعاً ثم يلقي ببصره شطر قريتها هناك القابعة علي النهر وينقش هذا الجسر الموصل إلى قريتها سطورا ونقوشاً من الذكريات .

كم سار عليه طويلاً ؟ وكم جلس علي شاطئ النهر ؟!
وما أن لاحت صورة منصور في رأسه حتى فرت من مخيلته الحكايات الجميلة وارتسمت علي وجهه سحابات من الحزن . عاود هاشم النظر إلى السماء ثانية ، فتراءى القمر في عينيه في لون البهاء وأحاطت رأسه هالات من نور علوى ، وشنفت أذنيه تسبيحات الكروانات الآتية من قلب الزمان السحيق .

أخرج هاشم من صدره صدأ النفس ودهاليز الظلام ، وتدفقت بين حناياه فيوضات عارمة أثلجت السعير الذي كان يكتوي بجمره . هدأت نفسه واطمأنت فجعل يتأمل النور المسكوب في البطاح والنواحي ، وصحا علي صوت عذب جاءه من أخته الكبرى قالت عزيزة في حنان بالغ :

- أستظل علي هذا الحال كثيراً.. يا شقيقي العزيز؟
- أجاب وهو يستمد من قلبها الطيب دلائل الرضا:
- نسأل الله أن يبدد هذه الغشاوة.
- قل بالله عليك ما الذي أستطيع أن أفعله لك؟

سكت مليا ثم قال :

- لا أدرى .

- وأنا أعرف .

التفت إليها علي عجل وتساءل فى دهشة :

- كيف ذلك ؟!

- سأقابل ضحي يا هاشم وسأعرف منها الحقيقة.

- اخترق قوس من نور ونار صدره فقال بصوت متصدع:

- أتذهبين إليها لتعرفين الحقيقة؟!

- وما الصعوبة فى ذلك؟

- أخاف هذه الحقيقة.

- أي خوف يا هاشم . إما أن يكون الأمر واضحاً.. أو لا يكون وفي كل الحالات ستتضح الأمور.. وبها تستقر نفسك يا أخي العزيز .

- ما تقولينه هو الصحيح .

وربتت علي كتفه بحنان بالغ وعقبت :

- ما سيفعله الله هو الخير يا هاشم ، فالله هو البصير والخبير والرحيم بالعباد .

❖ ❖ ❖

أقبلت عليه بوجه يزغرد بالفرحة وقالت :

- جئتك بخبر طيب .

طوى هاشم الكتاب الذي بين يديه وقال على عجل :

- أي خبر يا عزيزة؟!

قالت فى دلال وهي تصلح من طرحتها :

- دعني أولاً استريح من هذا المشوار .

جلست علي حافة السرير وراحت تطالع صورة أبيها المعلقة علي الحائط.. بوجهه المليح .. تجسدت صورته في رأسها مفعمة بالقوة والحيوية والحياة.. عاودت النظر إلى وجه أخيها هاشم الذي فيه شبه كبير من وجه أبيه وكأن قسمات وجهه قد صبت من ملامح أبيه. التصق هاشم بها وقال وقد ازداد رغبة فى سماع خبرها.. بدأت عزيزة بصوت عذب :

- ضحي بتحبك يا هاشم .

جرت الدماء دفاقة فى وجهه وتألقت عيناه نورا .. فراح يقول بفرحة :

- وكيف عرفت ذلك .. يا عزيزة ؟

- قابلتها وجالستها وتحدثنا طويلا فى شأن ذلك . قاطعا:

- ومنصور؟!

- كنت سأقول .. ولكنك قطعت علي الحديث.

تساءل بلهفة :

- إذن ما هو أمره؟!

سكتت مليا وعادت توضح :

- كل ما في الأمر أنه ابن عمها.. وليس لها أشقاء ذكور وهو يرعى أباها وأسرته فى مرضه.

- هل هي التي قالت ذلك ؟

- بل هذا الذي استنتجته من حديثي معها .

تسرب القلق إلى قلب هاشم فواصل الحديث مستفسراً :

- إذن ما هو المطلوب الآن ؟

هي الآن فى انتظارك عند حقلها . . وما أن قالت عزيزة هذا حتى كان هاشم قد غادر الدار ليتم هذا اللقاء .

❖ ❖ ❖

خرج هاشم والنور ينداح فى البطاح كلها .. نور تسر بل فى ظل السحب الخريفية. فبدت فى مرمي بصره قرية ضحي تخيم فوقها ظلال من السحب الرمادية .. ويفتح الفور في حوافيها مسارات من الضوء الخافت. دفع هاشم بقدميه حتى أتي إلي القنطرة التي سيعبرها إلي حقل حبيبته .. اجتازها .. مواصلا السير إلى الحقل. وهناك كانت ضحي تجلس وقد ارتدت جلباباً فى لون اخضرار الأرض وعطت رأسها "بشال" في لون السماء الصافية ..

فبدا وجهها بين صفاء الزرقة واخضرار الأرض مليحاً شذيا .. وإن كانت فى عينيها نظرات حائرة ترمي بها فى الأنحاء من حولها. ما أن رآته حتى شبت علي أطراف أصابع قدميها واستقبلته هاشة باشة بقدومه .

أخذته من يده وأجلسته تحت ظل شجرة وارفة الظل.. وبالقرب منهما كانت بقرة صفراء اللون تستدير في طوق ساقيتها .. تدور والماء من بين كواديسها الفخارية ينساب فى جدول رقراق .. وتنتهي دفقاته إلى مساحة الأرض .

وطائر فى لون ما جاء به يحوم حول الشجرة حينا.. وفوق الساقية حينا أخر ثم ينتهي به المطاف بأن يقف علي جسم البقرة . فتقف البقرة .. ويتوقف الماء عن التدفق .. يخفت قلب ضحي خفوتا ويزداد قلب هاشم ضراما.. ثم يقول وقد شده ما حدث : - تمنيت أن أراك .

أومأت ضحي برأسها إلي الأرض. ملأ هاشم عينيه بصورة ما رأي فيها واسترسل :

- كنت فى غاية الشوق لرؤياك يا ضحي لم أتصور أن يطول الغياب إلى هذا الحد .

رفعت ضحي رأسها إليه ودارت فى عينيها نظرات شاردة ثم تقطرت عيناها بالدموع .. فأتت بطرف "شالها" وجففت ما سال من عينيها من دموع . قال هاشم بشجن :

- هذا الأمر يجزعنى .

وسكت مليا وعاد يقول وهو أكثر تأثراً :

- كنت فى غاية الشوق لرؤياك يا ضحي .

ردت ضحي بصوت خافت شجي .

- وأنا فى نفس الشعور .

ما أن سمع هاشم كلماتها تلك حتى جرت الدماء فى حناياه تلتم قلبه المفعم بالوجد والشجن فيهتز من الأعماق ويمضي قائلاً .

- حدثتني أختي عزيزة عما دار بينكما غير أنني فى قلق من وضع منصور يا ضحي .

فاجأها الاسم .. وشغلها هي أيضاً فما الذي ستقول في شأن ابن عمها الذي يرعى شئون أسرتها ويرعى أباها فى مرضه ويفعل أكثر ما ينبغي؟ وهو ليس بالإنسان السيئ بل هو مثال للرجولة والشهامة والكرم . قاطعها هاشم فى لهفة :

- سكوتك هذا يخفيني يا ضحي .

رفعت رأسها .. انسابت خصلة من شعرها الفاحم علي وجهها البض.. فبدت كبنت من بنات الحور . هدلت يمامة رقيقة رهيفة فى قلب شجرة ملتفة بالخضرة .

سكت هاشم عن الحديث وغاب فى فكر معذب ثم صحا علي صوتها الممتلئ بالمعاني الجميلة :

- كل شئ بيد الله يا هاشم.. غير أن ما قلته لأختك عزيزة هو الذي فى قلبي .

اهتز هاشم من الأعماق. وبالرغم من أن الكلام فيه حلاوة وطلاوة وعذوبة ولكن فيه أيضاً من المعاني الأخرى الكثيرة. عاودت اليمامة عزف قيثارتها غير أن عزفها الآن كان النوح والشجن . أمسك هاشم بيد ضحي وضغط عليها.. استسلمت لما فعل.. وسرى خدر لذيذ بين القلبين قامت ضحي إلى بقرتها وسحبت الحبل من علي رقبتها وقدمت لها حفنات من الحب فى مكتل وجعلت تربت علي رأسها وعنقها وهاشم يطالع ما تفعله ولا تنفك عيناه عما تقوم به ومضي هاشم وضحي علي هذا الحال ما بين الفعل ورد الفعل إلي أن حان وقت الظهيرة .

وجاء وقت غذاء الفلاحين الذين يكدون بفئوسهم خرجوا مشمرين عن سواعدهم وقطرات الماء الممتزجة بالطين تتقاطر من وجوهم وأعناقهم وسواعدهم. ودع هاشم "ضحي" وانصرف وقلبه يمور بالمشاعر المتباينة ، عبر القنطرة ونظر إلي أسفلها رأي الماء عميقاً غائراً لا قرار له .

وهناك علي شاطئ معشوشب وتحت ظل شجرة قصيرة شذية تتلون أغصانها بألوان أزهارها.. كان يجلس إدريس تحت ظلها.. ويمسك بيده مغزلا ويغزل من صوف أغنامه سترة صوفية ووجهه يمتلئ بالخشوع والسكينة . جلس بجواره بهدوء. شعر به

إدريس توقفت يداه عن المغزل.. وضع المغزل فى حجر جلبابه وتطلع إلي هاشم طويلا ثم قال :

- قريتنا ستحتفل غدا.. بعرس فتحية وزغلول .

ويسكت مليا ثم يعود بالحديث :

- فرحت كثيرا لهذا الزواج . فتحية جاهدت وتحملت مسئولية دارها بنفس راضية وكذا كان زغلول.

ويبلغ إدريس ريقه ويقول:

- شرف عظيم أن يأتي الجهاد بهذه النتيجة.

ويتمتم إدريس بآيات قرآنية كريمة ثم فى صوت عذب رخيم يعقب :

- واجبنا نحن جميعاً أهل القرية أن نشارك فى هذا العرس تحية لهذا الجهاد الطيب .

ويشاركه هاشم الشعور.. ثم ينصرف الاثنان. إلي دارهما .

❖ ❖ ❖

جذبت نعمات ابنتها صفية إليها وراحت ترسم بمكحلتها عينها رسماً دقيقاً جميلاً، وكلما خطت خطا جعلت تتأمل ما نفعل وما أن أكملت زينتها حتى دفعتها إلى الخلف دفعة خفيفة وطفقت تمعن فيها النظر مرة من الأمام وأخرى من الخلف ثم

تـدعوها إليهـا ثانيـة. وبعـد أن أكملـت رسـم عينيهـا جـاءت إلـى شعرها فقاطعتها ابنتها صفية قائلة:

- لقد مشطته يا أمي .

- وهل ما فعلتيه يكفي؟!

وعادت الأم تصلح وتسوي وتهذب ما فعلته ابنتها وتقول وهي تملأ عينها بها وكل ما فيها ينطق بالفرحة:

- والله غادة يا صفية يا ابنتي.. أميرة بنته سلطان.

غمر صفية شعور مفعم بالسعادة والفخر.

عقبت عزيزة بحب ومودة:

- وكأنك أنت العروس يا أختي صفية.

ردت صفية فى تيه وخيلاء:

- أنا بنت الشيخ "أبي العزم"

وتندفع صفيه إلى أمها وتقبل يدها وتقول:

- وبنت نعمات أم بنات القرية جميعهن.

علا صوت جهورى يقول:

- وأنت عزيزة.. العزيزة علينا جميعاً.

استدارت عزيـزة إلى الخلـف رأت أباهـا وقـد ازداد مهابـة بثيابـه البيضـاء وبحسـن وجهـه ووسـامة ملامحـه . تأملـت أباهـا طويلاً وهي فى نشوة غامرة .

اكتمل الشمل ، بمجئ أفراد الأسرة جميعهم . وقف أبو العزم ينثر نظراته علي أولاده وبناته بمشاعر تفيض رقة وحنوا فقال بصوت ممتلئ بالرجولة والأبوة

- علينا.. ألا نخرج فى صحبة واحدة. بل فى تتابع وسكت هنيهة ثم قال :

- عزيزة وصفية فى صحبة أمهما، وسالم ومعه شهاب ، أما أنا فيصحبني هاشم .

وتحرك أفراد الأسرة كما أمر أبوهم . بدأ أبو العزم وأبنه هاشم . وكانت القرية قد خرجت إلي عرس زغلول وفتحية .. فتاة القرية الحسناء وقيثارتها التي تزف إلى حبيبها زغلول الولهان بها والهائم في دنياها .. لقد صان الاثنان أسرتيهما من السقوط والكل يقدر فيها . هذه السجايا النبيلة .

التف أهل القرية جميعهم حول أبي العزم وأبنه هاشم وراحوا يمطرونهما بالمديح والثناء علي ما يقدمان به للعروس وللقرية من أيادي بيضاء قال إدريس بفرحة غامرة :

- العروسان . لا يصدقان أنهما قد صارا اثنين فى واحد .

التفت هاشم إلي إدريس وعقب :

- ما أروع هذا التوصيف الجميل .

تقطرت الدموع من عيني إدريس واسترسل يقول :

- يا ليت كل الناس تدرك أن الحب العفيف يطهر النفس تطهيراً كاملاً.

أصابت الكلمات شغاف قلب هاشم. فأقبل عليه وسأله فى تأثر شديد:

- أتقول هذا الكلام يا إدريس؟!

- ويا ليتني أقول أكثر من ذلك

مضي الشيخ أبو العزم إلى ساحة القرية يتفقد ما تم بشأن هذا العرس . وما هي إلا دقائق حتى دقت الطبول وارتفعت نغمات المزامير، وبدت الفرحة فى أجل صورها.

اصطف الناس رجالا ونساء وفتية وفتيات وأطفالاً ، الكل تجري فى حناياه فرحة صادقة ، وجاء زغلول يتهادى الخطي وقد ارتدي جلبابا جميلا فضفاضا ولفع كتفيه "بلاسة" رائعة زادته وسامة أكثر .

تابع الناس تفيض قلوبهم بالفرحة والقرية موثوقة بوصال حميم . والليل الندى يتزيا بقمر قد صار بدرا ، وهاشم فى صحبة إدريس يقول كلاماً جميلاً عذبا ، وبينما هاشم ينخرط

فى الحديث مع إدريس فوجئ بضحى تأخذ مكانا مع بعض فتيات قريتها فيجلسن ويتابعن العرس .

انتصب هاشم حائراً ما الذي يفعله؟ واختلط الحابل بالنابل فى شأنه ودار ومار . خلصه من ذلك إدريس وهو يقبض عليه ويقول :

- تجلد إني أري تلك التي تراها.

تساءل هاشم فى حيرة:

- وما الحل؟!

- أنها بالتأكيد قد جاءت لتراك.

زغرد قلب هاشم بالفرحة واسترسل يقول:

- وما يجب علي أن أفعله؟!

- أذهب وقابلها.

أنطلق هاشم إلى أخته عزيزة ودعاها من مجلسها واصطحبها إلى موضع ضحى. وهناك كانت ضحي تجلس بين رفيقاتها كغزال شارد يبحث عن أليفه. ألقت عزيزة السلام وسلمت علي ضحى وعلي من معها. ومد هاشم يده وقدمها إلى ضحى، سرت فى أصلابه مشاعر ندية دغدغت حواسه كلها، وبعد أن سحب يده تحول إلي مخلوق آخر، وترك أخته عزيزة معها وانصرف بهدوء إلى رفاقه .

أخضر العرس وتشكل بألوان مشاعر الناس وفاض حلما وأرف الظلال فى كل عين. تلون بلون اخضرار الأرض، وصفاء أنهر وبهاء القمر. كل من حضر جعل يستلهم من قصة العروسين سيرته، وحياة قريته، بل قصة الناس جميعهم، أما الشيخ أبو العزم فقد تصدر القاعة مهيبا بطوله الفارع وسمته المشرق بالإشارات والرموز. وسافر الليل إلى منتصفه وأكمل القمر استدارته ، وبدأت الأفراح تأخذ طريقها إلى الدور عندما انفض الناس كل الناس عن هذا العرس الكبير الحافل بالحب والمودة والخير العميم .

❖ ❖ ❖

صحا هاشم من نومه والفجر يوقظ الطبيعة من سبات عميق، هتف فى أعماقه نداء عارم يدعوه إلى الخروج فى صمت.. لمح دفقات من النور تنثر ثناياها من مكاحل عيون الأفق. كل شئ فى صدره يتبرعم بالأمل .

"أنا مازلت أصون فى قلبي حبى لضحى.. فهي التي أهدت قلبي هذا النبض الجميل.". صار وكل شئ فى عينيه يغني الطيور تغني .. وهفيف الشجر يغني.. وحفيف الأغصان تغني.. وهفيف الشجر تغني.. حتى صوت هذا الفلاح العجوز الرابض وحده فى كوخه الطيني. أنا أسمع أصداء صوته.. إنه يحب الغناء.. فهو دائما يملأ نفسه بالغناء. شد هاشم خطاه إلى كوخ هذا الفلاح العجوز

وقطرات الندي تغسل قراريط حقله الندى.. وما أن وصل إلى مقدم الحقل حتى ألقي العجوز بفأسه علي الأرض وجرى إليه وقال ووجه يتسع بابتسامه جميلة:

- أهلا يا ابن الحبيب الغالي .

هم هاشم أن يقبل يده.. نزع العجوز يده بسرعة وقال وهو يقبل رأسه :

- أصيل ابن أصيل .

- كل من في القرية يحبك يا عمي محروس.

- حمد الله علي هذا الحب.. فهو ذخيرتي فى هذه الدنيا.

جلس هاشم علي الأرض .. وجرى محروس إلى كوخه الصغير.. وأحضر قطعا من الجبن وطبقا من القشدة وبعض الأرغفة وقال بسعادة :

- فلنفطر سويا.. تحية حب ومودة.

تطلع إليه هاشم طويلاً.. جذبه محروس إلى الطعام قائلاً:

- فطوري معك يساوي الدنيا ومن فيها

اخضلت عينا هاشم بالدموع .

- أتبكي يا هاشم فى هذا الصباح ؟!

- ليس بكاء الحزن.. يا عمي محروس.. ولكنها لحظة من لحظات الوجد والشجن .

- لوحت الكلمات برأس محروس فقال :

- وليس لي إلا هذا.. رغم أني لا أفهمه .

- وأكلا هنيئاً وشربا مرئياً ثم اكتملت الصحبة عندما جاء إدريس .. حياهما" وافترش معهما الأرض وأخرج من صدر جلبابه قلما وأوراقاً وقال وبسمة من النور فى لون اشراقة الضوء تعانق وجهه :

- جئت لأكتب يا عمي محروس .

بادره هاشم قائلاً:

- وما الذي ستكتبه يا إدريس؟!

سكت إدريس مليا ثم عاد يوضح:

- الوفاء يقتضي مني أن اكتب عن هؤلاء.

صوب محروس نظراته إلي إدريس وتساءل:

- ومن هؤلاء يا شيخ إدريس؟

- أكتب عن هؤلاء الراحلين من أهل قريتي. إنها تحفل بالكثير.. والكثير.. الناس الطيبين الذين رحلوا بعد أن أفنوا قلوبهم خدمة للناس.. وعن الحاضرين الذين يعطون فى صمت وحب ومودة .. النور الذي فى هذه القلوب هو الذي يدفعني إلى ذلك .

شد محروس رأسه إلي إدريس وأرهف إليه السمع وهو يقول:

- عن هؤلاء الأتقياء المحسنين. والفقراء والمساكين.. عن كل من يعطي بدون أجر.. وعن الذين يضحون بأنفسهم وجهدهم ونفوسهم خدمة للناس وللمبادئ .

ويفتر ثغر محروس عن ابتسامة ويعقب : ثم نخرج من هذا الحديث .

بادرة إدريس قائلاً : بالعكس يا عمي محروس. لقد جئت إليك خصيصاً لتحكي لي عما يعمر به قلبك من حكايات جميلة.

وعقب محروس فى تأثر شديد : أجئت إلي لتكتب ؟!

- أنت تصون فى قلبك حكايات جميلة عن قريتنا الخضراء.

وأتكأ محروس عل جذع شجرة جميز عميقة .

وعلق عيناه بالسماء .. وأطرق مليا يستخرج من مخزون صدره الحكايات. وراح يحكي.. ويحكي.. وقلم إدريس يخط ما يقوله.. وهاشم ما بين الحين والحين يعقب.. ويفرح ويبكي وتشده تلك الحكايات الوضيئة. وتناثر الحديث حبا ومودة ودفئاً وعذوبة بعد أن أخرج الثلاثة ما في قلوبهم من لواعج الكلم .

نـزل أبـو العـزم مـن علـى فرسـه وأتكـأ علـى ولـديـه هاشـم وسالم، خرج كل من فى الدار وهم فى وجل، اندفعت ابنتاه إليه والتصقتا به وراحتا تذرفان الدموع فى صمت، صحت عيناه وانتزع ابتسامة بصعوبة وألقاها علي وجهيهما. جرت نعمات وأعدت له حجرته، دخلها أبو العزم وهو يجر قدميه بصعوبة بالغة وألقي بنفسه علي أول مقعد قابله وتمتم وهو يشير بإصبعه إلى أولاده بكلمات خافته:

- فلتبق هنا أم هاشم وولدنا هاشم .

وتطلع إلى بقية أولاده بنظرات واهنة وأضاف:

- وسأدعوكم إلى بعد قليل .

وسكت أبو العزم مليا وسحت عيناه بالدموع حتى اخضلت لحيته ثم لملم شمل نفسه وقال بكلام يتقطر حزنا :

- معذرة يا أم هاشم يا ست هذه الدار.

وتحشرجت الكلمات بين شفتيه:

- يا ولدى العزيز هاشم.. يبدو أنك ستتحمل المسئولية صغيراً

وارتجف كل ما فيه ومضي يقول:

- الحمل سيكون ثقيلاً عليك يا أبني الحبيب .

التصقت أم هاشم بزوجها وجعلت تجفف دموعها بذيل ثوبها أما هاشم فقد أخذه الموقف المفاجئ وروعه تساءلت نعمات في صوت متصدع : ما الخبر يا زين الرجال؟ خبرنا بالله عليك ما الذي حدث؟!

رد أبو العزم وهو يسترجع الأمور كلها:

- كل ما كنت أملكه من مال انتهي.. وتلاشى. ضاع ما بين مساعدة المحتاجين وهذا أجره عند الله وذلك يزيدني سعادة أم الشيئ الأخر وهو أصل الداء كله. فهو ذلك المال الذي ضاع نتيجة الغدر والخيانة وفقد الأمانة.

وبلع ريقه.. وطفق يلهث.. ثم عاد واستجمع نفسه واسترسل :

- أعطيت مالا كثيرا علي سبيل دين يرد في موعد محدد يتناسب مع ظروفي التي احتاج فيها إلى هذا المال.

وأخذ يقول بصوت متقطع :

- أعطيته كدين كما قلت لأقرب الناس إلي. ولما جاء الموعد اعتذروا.. فلم أبال.. وفي الثانية اعتذروا.. فطالبتهم بضرورة سداد المبلغ نظرا لظروفي الخاصة .. وفي الثالثة ..

وسكت وجعل قلبه ينتفض ويقول وكل ملامحه تئن حزنا وحسرة.

- وأخيراً. قالوا ليس علينا دين لك.. لم نأخذ منك شيئاً. تصوروا أن يقول أقرب الناس إلى هذا الكلام.. طمعوا.. وخانوا وغدروا.. خانوا الأمانة.. خانوا الأمانة.

وتوقف. هنيهة وأنشأ يحتوى زوجة وابنه بنظرات عينيه ثم يقول فى أسى .

- والرصيد الآن صفر.. الرصيد صفر.. ونحتاج إلي المال الكثير لتجهيز زواج ابنتنا عزيزة أول زواج.. لنا.. أيكون هذا الموقف مع ابنتنا البكر؟ أيمد أبو العزم الذي تعود أن يعطي يده للناس ليأخذ ؟!!

ويتحسر ويتنهد.. ويتوجع :

- لا أستطيع ذلك يا نعمات.. لا أستطيع ذلك يا ولدى هاشم.

تقطع نعمات وولدها هاشم استرسال حديثه ويقولان فى نفس واحد:

- لم كل هذا الحزن؟ فداك كل شئ يا زين الرجال.. صحتك بالدنيا. أنت أكبر من كل ذلك.

- ازداد حزن الرجل وعاد يكابد ما يعانيه .

- كيف يكون ذلك؟! الناس قد صاروا غير ما كانوا خانوا الأمانة .. وغدروا بالوعد.. ثم وضعتكم أنا فى هذا الموقف الصعب. وأنا السبب فى كل ذلك .

وارتجف جسمه كله وانتابته هزات عنيفة وطفق يقول:

- أهكذا يصغر أبو العزم أمام الناس؟! أيصير أبو العزم ألعوبة في أيدي الناس؟! أيحدث كل ذلك وأنا على وجه هذه الأرض؟!

ولا حقت أبو العزم حمي شديدة.. واحمرت عيناه واتسعتا ببريق شديد ثم يعود ويستوي حاله وتهدأ نفسه ويشرق وجهه بابتسامة وضيئة ويقول:

- لا يا هاشم.. لا يا نعمات ما قلته قد أغضب الله .. سامحني يا ربي علي ما قلت .. سامحني يا إلهي علي ما فعلت لم يعد في قلبي ذرة من كره علي هؤلاء أعفو عني وعنهم يا غفور يا غافر الذنب يا رحيم يا كريم يا قابل التوبة.

وينفتح الباب علي مصراعيه ويندفع إليه والداه سالم وشهاب وابنتاه عزيزة وصفية وأحاطوه وأمطروه بالقبل والبكاء.

انفرجت سريرة أبي العزم وانشرح صدره وأنشأ يوزع نظراته ما بين زوجه نعمات وأولاده الثلاثة وابنتيه عزيزة وصفية ويدفق النظر فيهم وفيهن. ويتمتم بكلمات غير مسموعة ثم يجذب هاشم إليه ويقول بصوت صاف عذب :

- أوصيك بأمك .. وأختيك عزيزة وصفية ضعهن في ناظريك أينما كنت وكيف كنت .

وبصوت يتجلى بالخشوع .

- إيـاك أن تفـرق هـذا الشـمل أسـرتي أمانـة بـين يـديك وتكسـو وجهه ابتسامة مضيئة وضئية ثم يسلم الروح لخالق الخلق .

ويهب كل من فى القرية إلى هذه الدار الرحيبة الكريمة النساء والرجال والفتية والفتيات وحتى الأطفال الصغار وقد غصت الدار بهم وبهن وكذا غصت القرية بالناس من القرى والكفور والنجوع المجاورة. لقد جاءت المعمورة كلها تودع أبا العزم إلى مثواه الأخير. وكان الجميع فى هذا الجمع الحاشد يكايدون حزنا عميقاً لرحيل هذا الشيخ المهيب .

❖ ❖ ❖

جلست نعمات يتلون وجهها بلون الحزن كله، وأولادها من حولها تشرئب إليها أعناقهم يترقبون انفراج لسانها بأي قول تقوله. ولما طال هذا الموقف واستطال قطعت عزيزة هذا الصمت قائلة بنبرة موجعة :

- كنا نتأسي بأبينا وبك يا أمي العزيزة . فماذا نفعل بعد رحيل أبينا.. وأنت بينا فى هذه الحالة؟

أيقظت هذه الكلمات صمت نعمات فجمعت شتات نفسها وقالت وهي تكابد ما فى أعماقها :

- البكاء يا ابنتي يطهر النفس .. وإلى من يكون هذا البكاء؟!

أليس للعزيز الغالي الذي رحل عنا .

رد هاشم فى أدب جم :

- صدقت .. يا أماه .. صدقت يا أماه .

وأضافت عزيزة :

- معذرة يا أماه علي ما قلت. كنت أقصد فقط أن تعودي إلينا

عادت نعمات إلي إرادتها الحديدية وقالت :

- جمعتكم الآن يا أحبابي لنبحث أمورنا .. فالموقف الذي نحن فيه يحتاج إلى ذلك .

تدخل سالم :

- إنه الفراق ..

عقبت الأم :

- الفراق .. وما بعد الفراق .

تساءل سالم فى دهشة :

- وما الذي بعد الفراق؟!

- الكثير .. والكثير .

ونظرت إلى أبنها هاشم وقالت :

- قل لهم الحقيقة .

رد هاشم بأدب :

- سأفعل كل ما فى وسعي لنتجاوز أي مشاكل نتعرض لها

قاطعة سالم علي عجل :

أي مشاكل تلك التي تتحدث عنها يا هاشم؟!

تدخلت الأم بصوت حاسم :

- أنت مازلت علي عهدك دائما يا هاشم.. حساس للغاية ولا تحب أن تجرح مشاعر أحد. قل الحقيقة كاملة يا هاشم. فأنت الآن رجل هذه الدار والمسئول عنها .

وبلعت ريقها واشتد تأثرها ومضت تقول :

- أبوكم يا أولادي كان كريم النفس .. سخي اليد.. ودود القلب وتصدع صوتها وهي تقول :

- لقد أخرج أبوكم كل ما عنده وأعطاه للناس عندما اشتد عليهم الحال. أعطاهم ليخرجهم من كربهم وأزماتهم غير أنهم تنكروا لكل ذلك. ولم يسدد أي منهم دينه حتى أقرب الناس إليه .

علت الدهشة وجوه الجميع.. تساءلت صفية :

- وهل سينكشف حالنا ؟ وهل سنصبح غير ما كنا ؟

قاطعتها عزيزة غاضبة :

- هل هذا هو الذي تبحثين عنه يا صفية.. أبونا ترك لنا السيرة الطيبة.. والسمعة الحسنة.. والذرية الصالحة

عقب هاشم منشرح الصدر:

- صدقت يا عزيزة.. لقد قلت الصواب.. الصواب بعينه ..

وهذا هو عهدنا فيك دائما .

تساءل سالم :

- وماذا بعد ذلك؟

أضافت صفية :

- هذا بالضبط هو الذي قصدته. ما الذي سنفعله بعد أبينا العظيم .

تدخل شهاب: أعتقد أن أخانا هاشماً قادر علي التصرف الحسن .

أشرق وجه نعمات فرحة فعقبت .

- ما قاله أخوكم الأصغر هو الذي تمنت أن أسمعه فحمدا وشكراً لله علي ذلك .

وأضافت عزيزة : وهاشم بالفعل جدير بالمسئولية.

لاذت الأم هنيهة بالصمت ثم عادت تقول وهي تلقي ببصرها كله علي هاشم:

- هاشم ابن بار بطبيعته.. ويرحب بأي تضحية وهو أهل لها.

وبلعت ريقها واسترسلت :

- والتضحيات المطلوبة منه كثيرة : فعليه أولاً أن يتولي مسئولية الأرض بان يباشرها بنفسه . لأنها الآن هي المصدر الوحيد لنا .

وتطلعت إلى عزيزة.. ثم إلى صفية وعادت تقول :

- وعزيزة يجب تجهيزها الآن وفوراً حتى لا نصغر أمام الناس والجهاز قد يحتاج إلى نصف محصول هذا العام وربما أكثر.

حاولت عزيزة أن تتدخل. فأمرتها أمها بالسكوت ومضت تقول:

- وعلينا أن نحافظ بقدر الإمكان على ما كانت عليه أسرتنا بأن تصير أمور هذه الدار على ما كانت عليه.

وبصوت قوي وفي شبه الأوامر:

- وعلى الكل أن ينفذ ما يراه هاشم فهو الآن رجل هذه الدار.

وأمسكت ببردة أبيه ومضت تقول وهي توجه حديثها إلى هاشم.

- هذه كانت بردة جدك لأبيك ثم صارت لأبيك والآن تكون لك وأيضاً هذه العصا هي أيضاً كانت لجدك ثم لأبيك وهي الآن لك. فحافظ على الدار.. حافظ على اسم أبيك يا ولدي العزيز.

وقامت وقبلته من رأسه وعيناها تفيضان بالدموع

❖ ❖ ❖

وقفت نعمات فى "صحن" الدار بين طيورها من البط والأوز والدجاج والديوك الرومى التي بسط ذكرها أجنحته فى تيه وكبرياء. تابعت عيناها جماله وذكورته فراحت تحدق فيه وتتأمل عرفه ورياشه وكل ما هو باهر فيه، وكلما اختال الديك تيها وخيلاء كلما زمت شفتيها وانتابتها حسرة موجعة وظلت

علـى هـذا الحـال حتـى جـاءت أبنتهـا صـفية تحمـل إنـاء الحبـوب فأخذته منها وقالت:

- ساعدى أختك فى الخبيز وأنا قادمة إليكما الآن .

ملأت نعمات كفها بالحبوب ونثرته أمام الديك الرومي المنفوش تقدم الديك الرومي وئيد الخطو.. ولما تدافع الدجاج والأوز والبط إلى الحبوب المنثورة فرد الديك جناحيه وندت عنه ثـورة غاضبة وأسـرع إلى الحبـوب المنثـورة وصـار كلـه فوقهـا. تباعدت بقية الطيور عنه فزعة عاد الديك إلى ما كان عليه لم جناحيه ومد منقاره إلى الحبوب وراح يلتهما على عجل. ضحكت نعمـات مـلء شـدقيها وانسـحبت بعيـدا عـن هـذا الـديك المتبـاهي وأخذت تنثر قبضات أخري من الحبوب هنا وهناك حتى امتلأت الساحة بالطيور من كل صنف ونوع .

بسطت نعمات "شالها" علي كتفيها وسحبت قدميها إلى ركـن قصـى مـن الـدار.. وهنـاك لاحـت السنة نـار الخبيـز حيـث جلسـت أم السـعد أمـام فوهـة الفـرن وقـد شمـرت عـن سـاعديها الطـويلتين القـويتين وانفـتح صـدرها المصـبوب نضـارة متصـببا بقطـرات مـن العـرق.. وجعلت تقذف بأرغفة الخبـز داخـل فوهـة الفرن وفى كل مرة تصدر عنها فرحة.. تترنم فيها بمقاطع من أغنيات جميلة، بينما جلست بجوارها عزيزة تمد يدها فى "طاجن العجين" تجرف بأصابع رشيقة قطعة من العجين اللدن وتحيله

إلى دائـرة بمقـدار حجـم الرغيـف ثـم تلقـي بـه علـي "مطرحـة" أم السعد. وفي الجانب الأخـر وقفت صفيـة فـى رشاقـة جميلـة يتلـون خداها بلون جمرات النار فتبدو أكثر إثارة. تأملت أم هاشم ابنتيها ثم توالت فى رأسها حكايات من عطر الصبا. تـذكـرت يـوم عرسـها حينمـا جـاء أبـو العـزم ذاك الشـاب العفـى وأنشـأ يمطرهـا بوابـل مـن القبـل. صـرخت فـى أعماقهـا بـين حناياهـا آهـة موجعـة.. بعـد أن اكتـوي صـدرها بنيران الـذكـرى والآن يـا نعمـات قـد كتـب الله عليك أن تتحملين هذه الأمانة.. الحمل ثقيل يا نعمـات". وسرعان مـا تتوقـف شـواردها وتعـود مؤنبـة نفسـها . "يكفيـك هـذه الذريـة الطيبة الصالحة يا نعمات ما كان لك أن تفعلي ذلك"

وقفت أم هاشم أمـامهن.. انتصبت أم السعد واقفـة وقالـت فـى فرحـة غـامرة : حلـت علينـا البركـة يـا ست الـدار يـا أم البـنين والبنات .

وجعلـت تمـتم بمقـاطع مـن أغنيـات جميلـة وقـد ازدادت نشاطا وحيوية. انتهى أهل الدار من مهمـة خبيـز الأسبوع . وجـاءت النسـاء تحملـن علـي رؤوسـهن رقـائق الخبـز إلى خزينتـه ويـنطفن بقايا المهمة .

وانطلقت عزيـزة إلى الماء وغسلت يـديها ووجهها ولبست أجمل ما عندها وقد عقدت العـزم علـي أن تصارح أمهـا بمـا عقدت العزم عليه فهاشم عزيز عليها بل علي الأسرة كلها وهي الوحيدة

التي تستطيع مفاتحة أمها في أمر موضوعة. ذهبت إلى أمها تربعت علي الحصير بجوارها وأخذت تصوب إليها نظراتها فقالت أمها وهي تلقي ببصرها إليها :

- ما في الأمر يا عزيزة هل هناك شئ تحبين أن تقولينه لي؟ فهذا ما أعرفه عنك عندما تريدين التحدث معي.

جمعت عزيزة جوامع نفسها وقالت:

- أجل يا أماه .. إنه هاشم.

اهتزت نعمات في جلستها فتساءلت علي عجل:

- ما الذي حدث له؟!

- لا شئ. لا شئ علي الإطلاق يا أم هاشم يا ست الدار.

- إذن ما هو الموضوع؟!

- نريد له بنت الحلال.

ضحكت أم هاشم بملء فمها وعقبت.

- وهذا هو الأمر الذي نريده.

وألقت إليها نظرة ثاقبة ثم تساءلت:

- ولكن من بنت الحلال تلك؟!

- ضحي بنت الشيخ شاهين.

رمتها أمها بنظرة حادة وقالت في دهشة :

- ضحى .. ضحي بنت الشيخ شاهين!!

- أجل ضحي بنت الشيخ شاهين يا أمي.

سكتت أم هاشم مليا ثم عادت تقول:

- ألا تعلمين أن ضحي هذه التي تتكلمين عنها.. هي البنت البكر لأبيها.. وأبوها رجل مريض.. وملازم الفراش وله ثلاث بنات صغيرات؟

- أعلم كل ذلك يا أمي.

- اذن أنت لا تفهمين سؤالي.

- كيف ذلك؟!

- أعني أن هذا البيت يحتاج إلى رجل من أهله ليلم هذا اللحم.. وأيضاً يتولي مسئولية أرضهم وغيرها من شئون أخرى لم تنبس عزيزة بنبت شفة. مضت الأم تقول:

- أي أن الذي سوف يتزوجها لابد أن يقيم في بيتها في دار صهره .

وزمت أم هاشم شفتيها فى غضب واسترسلت :

- وابن عمها هو الأولي بكل تلك المسئوليات

وعندما حاولت عزيزة الرد قاطعتها أمها فى حسم:

- ونحن أيضاً في حاجة إلى هاشم ليلم لحم هذا البيت

ردت عزيزة فى صوت متصدع:

- ولكنه يحبها يا أمي العزيزة.

- دعيني لهاشم لأتفاهم معه فى هذا الأمر

وتركت الأم أبنتها وصعدت إلى سطح الدار. وهناك وجدت هاشما يقرأ كتابا فأمسكت بالكتاب وطوته وجلست بجواره وقالت فى مداعبة:

- حدثني بصراحة يا ولدي العزيز.

- أنا أحب الصراحة.. وأكون معك دائماً صريحا يا أمي الغالية

سكت ملياً وتأملت وجهه المشرق بابتسامة مضيئة ثم قالت:

- هل تستطيع أن تستغني عن ضحى يا أبني الحبيب؟!

- باغته سؤالها المفاجئ الذي لم يتوقعه فلاذ بالصمت.

- الإجابة ضرورية يا هاشم.. والآن.

- وهل هناك ما يستدعي هذه السرعة يا أمي؟!

- أجل هناك الكثير الذي يستدعي هذه السرعة.

- بالفعل أنا أحبها وأريد الزواج منها. . أما إذا كان رأيك غير ذلك فهذا أمر أخر.

- المسألة ليست كما تقول ولكن الظروف دائما هي التي تحدد المسائل.

برقت عينا هاشم ورسمت الدهشة علاماتها على وجهه فتساءل بهدوء :

- الأمر يحتاج إلى توضيح يا أمي.
- نحن فى أشد الحاجة إليك أي أن يكون وجودك ملازما لنا دائما وزواجك من ضحى لا يحقق هذا الهدف على الإطلاق وبلعت ريقها واسترسلت:
- وضحي أيضاً زواجها منك ليس فى صالحها.. فهي فى حاجة إلى رجل من أهلها من دمها ولحمها ليلم شمل أسرتها.. لأن أباها مريض يا هاشم. وهذا البيت يحتاج إلى من يرعاه ويرعي بناته الصغار.. ويراعي الأرض والزراعة.. والمسئوليات كثيرة عندهم يا ولدي .

وجعلت تملأ عينيها بكل ملامحه وتقول فى شبه توسل:

- وابن عمها هو الأولي بهذه الواجبات يا ولدى .

نزلت هذه الكلمات كالمطارق فوق رأس هاشم فاعتصم بالصمت .

قامت أمه وانحنت إليه وقبلت رأسه وقالت بصوت يمتلئ بالدموع:

- أريد فقط أن أوضح لك الحقائق.. والأمر فى النهاية هو فى يديك . فأصنع ما تشاء وتركته وانصرفت .



علي الشاطئ الآخر من النهر كان أبوها يسير بجوارها متكئا بذراعه علي كتفيها، وأمها تمسك بأخوتها الثلاث الصغيرات، ومنصور ابن عمها ملفوفاً فى جلباب أبيض يتقدم أمامهم ويئد الخطى. راح يبحث عن القنطرة ليلحق بهم فلم يعثر لها علي أي أثر، جرى متوازيا بهم من الناحية الثابتة من شاطئ النهر وجعل ينادي بأعلي صوته ضحى.. يا ضحى .

التفت إلى أنا هاشم هنا علي الشاطئ أناديك.. فلا يأتيه إلا الصمت والسكون". صحا هاشم وهو علي هذا النداء المفعم بالحزن والأسي، تمتم بشفتيه "سبحان الله .. ولا حول ولا قوة إلا بالله". أزاح عنه الغطاء ونزل من علي الفراش، فتح باب النافذة، رأي الفجر يبشر الكون بالمجيئ ، ونسماته المخضلة بعبق الندي تنفذ من خلال النافذة إلى الحجرة وتشبع فى الأنحاء كلها.

"أتبكي يا هاشم علي ما رأيته.. ما رأيته هو الحقيقة.؟ إنه الحقيقة بعينها.. وقد جاءتك مبرأة من الشوائب.. وناصعة كوضوح هذا النور الذي تراه" ويحدق فى جبين الأفق المرصع بإرهاصات اليوم الجديد ويعاود نفسه: "يا ألهي.. يا عفو يا غفور يا رحمن يا رحيم أرحم عبدك الضعيف.. حتى لا أضل الطريق.

صلي ورتل القرآن .. ثم خرج فاردا "عباءة" أبيه علي كتفيه.. ونزل إلى ساحة الدار التي بدأت تدب فى أنحائها

الحركة، وكانت أمه قد عصبت رأسها بمنديل أخضر وما أن رأته حتى تهلل وجهها سروراً وقالت وهي تملأ عينيها به:

- أنت مثل أبيك تماما يا قرة عيني.. كان هو أول من يصحو فى هذه الدار وسالت عيناها أدمعا ومضت تقول:

- أبوك كان حارسنا بقلبه وعقله ويديه وعينيه.

تندي قلب هاشم وجدا وحدت نفسه "كل شئ يفسر نفسه بنفسه.. يأتيني ناصعاً كبياض هذا الصباح"

تساءلت أمه فى حنو بالغ:

- وإلي أين المسير يا ولدى؟

- إنه موعد ري الأرض يا أمي.. ولا نريد التأخير وأن نجور علي أحد من جيراننا المزارعين.

- بارك الله فيك يا ولدى.. تصحبك السلامة دائماً.

وجرت إلى الداخل تعد له الطعام. جاءت بأرغفة مستديرة رقيقة لذيذة وقطع من الجبن والقشدة والعسل المصفي، قبل يدها وقبلت رأسه.. وبعد أن أكل هنيئاً وشرب مرئيا أنطلق إلى حظيرة المنزل ليمتطي حماره غير أن جواد أبيه ما أن رآه حتى أخذ يصهل صهيلاً صاخبا فاندفع إليه وربت بيده علي عنقه ورأسه، ثم مسح الجواد الأشهب برأسه علي كتف هاشم حدق فى

عيني الحصان واتسع وجهه بابتسامة عريضة ثم جاء بالسرج واللجام وامتطاه .

خرج هاشم والقرية تفتح جفونها علي يوم جديد، والفلاحون قد خرجوا يسحبون دوابهم من خلفهم، وهبات النسيم تراقص ذوائب الشجر، وكل شئ أمامه يوشي بحضور قوي.. رأي علي مقربة من بصره قراريط محروس الذي انزرع فى وسط الماء والطين، وما أن لمحه الرجل حتى جرى إليه وقال بفرحة:

- أعددت لك كل شئ.. يا ابن الحبيب الغالي .

شكره هاشم .. ونزل من علي جواده.. وذهب إلي أرضة وهناك كانت بقرة صفراء ناصع لونها تدور مع الساقية .. والماء يتدفق إلى الأرض، وطيور "أبو قردان". قد تناثرت ترشق بمناقيرها فى قلب الأرض المغمورة وتخرج أرزاقها، والشمس فوقها تنثر علي الماء حليب الضوء. "كل شئ يتحمل أمامك يا هاشم.. فيجيب عليك أنت أيضاً أن تتجمل.. وأن تخلع عنك كوابيس الظلام" وما أن عانق قلبه ما يري.. حتى أتته ترانيم فتحية الشذية.. إنها مازالت عفية رغم مسئولات البيت والحقل.. وزغلول زوجها يلتصق بها والاثنان معا ينثران فى الأرض بذور الزرع بأياد صبية نقية .. مليئة بالود والرجاء .

أقبل إدريس مفعم القلب بالوجد وقال منشرح الصدر.

- دع الفلاحين.. يؤدون حبهم للأرض.. فهذا عشقهم الأبدي

وأخذ هاشماً من يده وجلسا تحت شجرة جميز عتيقة

قال إدريس بصوت ودود: هل هناك جديد بالنسبة لضحى؟

هزت الكلمات هاشما من الأعماق .. كان يحاول أن ينسى أن يطوى فى صدره هذا الحلم الغريد ويسدل عليه الستار غير أن هذه الكلمات قد فتحت ثقبا فى هذا الجدار فرد هاشم فى شجن :

- جديد .. وجديد يا صديقي إدريس .

حدق إدريس فى وجه هاشم مليا ثم قال :

- وهذا الجديد هو الحقيقة يا هاشم .

- وكيف عرفت ذلك ؟!

- لم أعرف شيئاً .. ولكني أشعر من أعماق قلبي بأنك تقترب بهذا الجديد من الحقيقة .

وسكت إدريس هنيهة وعاد يقول مسريا عنه :

- ولو كان هذا الجديد مرا فى ظاهر الأمر .

- هو بالفعل مر .

- قد يكون هو الظاهر .. ولكن المخبوء فيه الله أعلم به والله لا يأتي إلا بالخير لعباده الطيبين .

سرد هاشم علي إدريس ما حدث ورأي أمه من هذا الزواج ودون أن يشعر راح يحكي له الرؤيا التي رآها فى منامه .

اتسعت عينا إدريس بنور غريب فقال فى يقين:

- بالفعل لقد تجلت لك الحقيقة بكل ما فيها يا صديقي العزيز ألم أقل لك ذلك .

- وانسابت كلمات إدريس لحنا أسيرا .

- ما قالته أمك هو الصواب وجاءت لك الرؤيا لتفسير لك ما قالته . فأسرة ضحي فى أشد الحاجة إلى منصور ومنصور هو الوحيد الذي يستطيع رعايتها.. وأسرتك أيضاً فى حاجة إليك وأنت الوحيد القادر علي رعايتها .

- شرد هاشم فى فكر عميق "اتضح لك الآن كل شئ يا هاشم . ولا مفر من هذه الحقيقة ولو أوجعتك .. فتقبل هذا الواقع يا هاشم" ورنا بعيداً إلي قرية ضحي.. زها دارها وارتسم فى مخيلته وسبح موجا عاتيا بين حناياه . "عليك أن تجفف ينابيع هذا الوجد الساري بين جوانحك.. عليك أن توقف هذا السيل المتدفق" وانفطرت الدموع سخية من عينيه.

قال إدريس فى مودة:

- لا تسرح بعيداً يا صديقي.. وتركب هذه الأمواج العالية لا نقدم علي هذا البحر الغاضب.. فأنت الربان الذي يقود هذه السفينة.. وكل من فيها بين يديك.

وربت إدريس علي كتف هاشم بحنو بالغ واسترسل:

- ما أعظم التضحية عندما تكون لشيئ أعظم.. أنت الآن تضحي بنفسك من أجل أسرتك.. وما أروع الفرد الذي يضحي لجمع أكبر.. ومن هؤلاء الذين تضحي من أجلهم؟! أنهم الأم.. والأخوة.. والأخوات أقرب الناس إلى نفسك.. إنهم من وريد القلب.. إنهم من الدم اللحم والعظيم" من الدماء التي تجري فى شرايين الجسد.

وأنطلق إدريس وعيناه تهيمان فى السماء. يقول كلاما جميلا وهاشم يرهف السمع إليه:

وآنذاك شدت فتحية الشذية العفية ونبرة صوتها بالغناء.. فانداحت ترانيمها فى الأنحاء والمرامي ومن خلفها الفتيات يرددن ما تقول. والطيور فى لون الألوان كلها.. تتدافع جماعات جماعات .. كل جماعة يقودها طائر جسور.. والسماء تثبت إلى الأرض أصداء هذا الوجود. وهاشم وإدريس فى هذا الحال المفعم بالوجد قد تعانقا معاً فى مشهد واحد بين السماء والأرض .

❖ ❖ ❖

صحا هاشم من شروده علي زغرودة قوية عفية، قام من مكانه وأمسك ببردة أبيه وارتداها وصار بها كما ينبغي أن يكون. تأمل نفسه فى المرآة وحدثها "هذا هو يومك.. هذا هو أول امتحان عسير يا ابن أبي العزم" خرج من حجرته ونزل إلي ساحة الدار

التي غصت بالنساء والفتيات اللاتي تزين بأجمل ما عندهن من ثياب، تألقت الألوان فى عينيه وتنوعت. قابلته أمه وقالت له ووجها يكتسي بالفرحة:

- حان وقت موعد قران أختك العزيزة يا ولدي العزيز.

مد خطاه إلي أخته عزيزة وفتح عليها حجرتها.. بدت فى عينيه بدرا من البدور وإن كان سطوع البدر فيه وداعة ورقة وسلام. قبل رأسها وانسالت دمعتان من عينيه.. عقبت أخته صفية:

- إن كنا نودع عزيزة.. العزيزة علينا جميعاً.. إلا أننا نزفها إلي بيت العدل.

ابتسم ضاحكا وقال:

- عقبالك يا صفية.

ترك هاشم الحجرة وصورة عزيزة مرسومة فى عينيه ومنقوشة فى قلبه: "أنفتقد ابتسامك المشرقة بعد الآن يا أختي عزيزة؟! إنك ما قطبت جنبك قط.. حتى فى الظروف الصعبة كنت تستقبليها بنفس هادئة مطمئنة .." دخل هاشم المسجد رآه يحتشد بالناس .

وفي وسطه جلس سالم وشهاب وحولهما مجموعة من شباب القرية .. وبعد هنيهة جاء إدريس والمأذون يتوسطهما العريس وكان يرتدي جلبابا صوفياً فاخراً ويرجل شعره الأسود الفاحم الذي أضفي علي وجهه الأشقر وسامة وصحة وعافية.

تجمع الشباب حول العريس هاشين باشين بقدومه..وما أن بدأت مراسيم شرعية الزواج حتى تقدم هاشم الجمع وجلس وعلي جانبيه سالم وشهاب وفي الواجهة منه جلس خليل بين أخواله وأعمامه.. وبدأ المأذون يتخذ عقد الوثاق الذي فيه السكن والمودة والرحمة. ألقي هاشم نظرة طويلة علي وجه خليل فبدأ فى عينيه ودودا هادئاً ويمتلئ بالسعادة افتر ثغر هاشم عن ابتسامة عريضة "لقد بدأ الخير بالخير يا هاشم.. إنه يلوح صادقاً فى عريس أختك عزيزة العزيزة علينا جميعاً.. أنت الآن ولي أمرها .. وأبوها.. وكل شئ فى حياتها.. حتى بعد دخولها بيت العدل" ارتاحت نفسه وأطمأنت وساده شعور بالأمن والسكينة . وما أن أتم المأذون عقد القران حتى عمت الفرحة الجميع وأقبل الكل يعانق العريس ويبارك لهاشم .

القرية تتجمل.. والليل يكحل العيون بالفرحة.. والأهل جميعاً قد جاءوا لتحية خليل فارس القرية الهمام فى هذا الليل والذي حظي بقلب عزيزة العزيزة علي قلوب أسرتها بل وأهل القرية جميعهم وجميعهن جلست العروس المتأنقة فى ثياب عرسها تدور برأسها.. ويسرى بين حناياها شعور الفراق والرحيل.. فهل تستطيع الابتعاد عن أمها وأخوتها وأختها صفية.. بل دار أبي العزم التى لم تتركه قط منذ مولدها. تخيلت أباها وقد جاء طيفا وضيئا ينشر حولها السكنية والطمأنينة وما أن تواري طيف أبيها

عن رأسها حتى وقفت عيناها علي خليل رفيق رحلتها الجديدة وأنيسها وأليفها. "أيكون خليل هذا يا عزيزة قلبا نديا.. ودودا عطوفا مثل أخيك هاشم؟! يا ليته يكون ذلك حتى يتحقق المراد وتكتمل السعادة وتنشر أجنحتها البيضاء حول قلبينا" صحت عزيزة من فيوضات خواطرها علي زغرودة عفية أطلقتها امرأة تفيض بالصحة والقوة، ألقت عزيزة علي المرأة نظرة ممتلئة بالهناء، أقبلت عليها المرأة العفية وقبلتها وهمست فى أذنها:

-ما أروع قبلة عريسك عندما ينفض عنك كل هؤلاء الناس.

تورد وجه عزيزة خجلا.. عاودت المرأة الزغرودة القوية.

جاءت أم هاشم وجلست بجوار ابنتها عزيزة وقالت وهي تكابد فرحة ممتلئة بالشجن:

- أنعود إلي الدار بدونك يا ابنتي الغالية؟!

وتقطرت عيناها بالدموع.. لمح خليل دموعها فألقي عليها نظرة ممتلئة بالحنان وقال:

- عزيزة الآن فى قلبي يا أم هاشم.. ويا أم خليل أيضاً .

أومأت عزيزة رأسها إلي الأرض طالعت المرأة العفية هذا الموقف كله.. فجلست أمام العروس.. وأطلقت ثلاث "زغرودات" ملأت بها أسماع الجميع. امتد الليل مفعما بالسعادة والهناء .. حتى أنهي العرس مكحلة العيون .. بعد أن صب فى القلوب فيوضات من

الحب المترع بالهناء. وودعت عزيزة أسرتها وسط مشاعر متباينة ما بين الفرحة ولوعة الفراق .

دخلت نعمات الدار وفى صحبتها أولادها هاشم.. وسالم وشهاب وصفية تحتويها أحاسيس جياشة . تذكرت زوجها أبا العزم فقالت وعيناها تتقطران بالدموع:

- كم كان أبوكم يتمني أن يتم هذا الزواج فى عمره.. وكانت عزيزة بالذات هي الأمل المراد.

قبل هاشم رأس أمه وعقب وهو يغالب عبراته:

- هذه مشيئة الله يا أمي الحبيبة.. ولا اعتراض علي قضائه وربت علي كتفها بحنو بالغ ومضي يقول:

- والبركة فيك يا أم الحبايب.

تدخل سالم مسريا عن الجميع:

- المهم أننا نسير علي خطاه.

ردت نعمات فى التو:

- أخوكم هاشم هو الذي فعل كل شئ. وفر المال اللازم لتجهيز أخته عزيزة وهو أيضاً الذي اختار العريس وكان اختياره موفقاً.

وأضاف شهاب فى فرحة:

- ونحن مطمئنين جميعاً علي كل ما يفعله أخونا الحبيب .

ألقي هاشم نظرة حانية علي أخته صفية وقال :

- ويبقي أن نختار العريس الذي يناسبك.

قالت الأم :

- صفية تريد المال والجاه .

ردت صفية ضاحكة :

- سيحدث ذلك بمشيئة الله يا أم الحبايب.

انفض جمع الأسرة . ذهب هاشم إلى أعلي الدار وجلس، وكان الليل قد تربع سلطانا علي الدنيا كلها، فرحا بنجومه المتألقة وشذي نسماته الندية.. وبقيثارة قيروانه غير أن هذا السلطان قد أيقظ فى قلب هاشم جرحا لم يندمل، تذكر ضحى تلك الفتاة التي ملات قلبه سطورا من الحب ، إن هذا الحب المعذب قد دخل مغارات الزمن.. وانكسر ذلك الحلم الجميل الرائع وتواري خلف واقع الحياة، ساوره هذا الحزن الشفيف السجين فى معاني القيم.

فجأة أتاه نداء إدريس جليا فى رحاب السكون.. "أسرتك تحتاج إليك يا هاشم .. وأسرة ضحي أيضاً تحتاج إلي عصب من لحمتها.. إلي دم من فصيلتها.. تحتاج بأن تجري الدماء فى شرايين الجسد الواحد". انتصب هاشم واقفاً وحدق من جديد فى رحاب الليل.. وهام مع مخلوقات الله التي تسبح فى هداته وسكونه ورحابته وراح يناجي نفسه:

"كل شئ بما قدر الله يا هاشم.. ما أروع أن تكون حيثما ينبغي لك أن تكون.. أخلع عنك ذات النفس وهواها. فهناك حب أعظم من هذا الحب.. حب المعاني والقيم. أن تكون شهيداً دائماً. تعشق إيثار النفس وما فيها من سجايا ضحيت بدراستي من أجل رعاية الأسرة. وإسعاد كل من فيها لأنهم بالفعل كانوا فى أشد الحاجة إليك.. وقدر لك يا هاشم أن تضحي أيضاً بضحى.. حتى يكون الضحى بعد الآن هو البداية لحياتك الآتية".

❖ ❖ ❖

الأرض تبوح بما فيها ولم فيها لمن فيه يا هاشم" تطلع هاشم أمامه رأي مساحات الحقول تتناغم فى خضرة يانعة، تزهو مع هبات النسيم الندي، تتلون مع ألوان الضوء الباهر "سبحان الله .. سبحان الله على ما أبدعه وصوره" توالت الطيور أسراباً فى رحابة السماء، تهادى هدهد جميل الرياش فوق بساط من العشب المزدان بالزهور البرية، غني أغنيات مجيدة .

"أيسكرني ذاك المخلوق العريق الذي أسر ملكة سبأ بصوته الساحر" حدق فى الهدهد طويلاً وهو يتهادى بين الزهر المتناسق مع ريشه. تدفقت فى صدر هاشم مشاعر مفعمة بالحنين، امتلأ قلبه بالوجد والشجن عندما حطت يمامة رهيفة علي غصن شجرة شذية، استرسلت اليمامية بالبوح الرهيف.

سحب هاشم خطاه عندما سمع صوتا قويا آنيا من تخوم الحقول الممتدة. إنه صوت فتحية التي مازالت تغني للحب وللناس وللحياة "ما أروعك من امرأة أنت مازلت تكافحين فى الحياة بلذة وعشق مجنون.. كل ما فيك يضحك يا فتحية يا فاتحة الباب لكل المحبين" وغرق هاشم فى بحر التيه المعتق بهوى السنين . لم ينتبه هاشم من فيض خواطره إلا على صوت أخيه شهاب وهو يقول: أكل هذا الوقت تقضيه هنا يا أخي العزيز؟ هون عليك من مشقة هذا العمل.

ربت هاشم علي كتفه أخيه وقال وهو يضاحكه بابتسامة مشرقة:

- أليست هذه أرضنا يا شهاب؟! أنه العمل والعرق من أجل لقمة كريمة يا أخي الحبيب.
- أنت تبذل أقصي ما في وسعك.
- وهذا ما يجب أن أكون عليه.
- إنك تتحمل ما فوق طاقتك.
- ازدادت المسئولات يا أخي العزيز. فسالم فى الجامعة يحتاج إلى المصاريف.. وأختك صفية علي وشك الزواج.

وحدق فى شهاب طويلا وملأ عينيه بملامحه الندية ثم قال وكل ما فيه ينطق بالسعادة:

- أريد أن تتحقق لنا السعادة بدخولك كلية الطب يا شهاب إنك تملك الموهبة والنبوغ وتستطيع بهما أن تدخل هذه الكلية بمشيئة الله وتوفيقه.

رد شهاب والدموع فى عينيه:

- هذه الكلية التي كنت تريد دخولها وكنت قادرا علي ذلك ثم ضحيت بنفسك من أجلنا.

أخذ هاشم شهابا من يده وأجلسه علي حافة جدول ينساب ماؤه الرقراق وقال بصوت هادئ خاشع:

- ليست هذه تضحية يا أخي وإنما هو الواجب هو رسالة الأخ الأكبر نحو أسرته. فلا تقل ذلك القول مرة ثانية.. وكل ما أطلبه منك أن تحصل علي المجموع الذي يدخلك هذه الكلية حتى تكون طبيباً لقريتنا نعالج أهلها وفقراءها وأبناءها الطيبين اعتصر البكاء شهابا ولم يخرجه من هذا الحال إلا حضور إدريس الذي جاء بجلبابه الأبيض وبشبابه الورع جلس إدريس علي البساط الأخضر وأمام الماء الرقراق وقال وعيناه تعشقان ما يقول: جئتك لأمر هام.

تركهما شهاب وانصرف. عاود إدريس الحديث بصوت عذب

- عفاف بنت الشيخ محروس.
- ما لها يا أخي؟!

سكت إدريس مليا واسترسل يقول بصوت هادي:

- حدثوني فى أمر الزواج منها.

رد هاشم فى التو:

- خبر سعيد حقا يا ليت هذا الأمر يتم لتكون بهذا الزواج قد بلغت المراد.

- ولكني أخاف علي أمي المريضة من أي زواج.

قاطعة هاشم:

- إنها بنت بارة موصولة بحب الله. وهي بذلك تعرف واجباتها.

- هذا صحيح ولكني أخش المقادير.

- أنت يا إدريس الذي يقول ذلك؟!

- ربما أخطأت التعبير

ضحك هاشم وتطلع إلى السماء وقال:

- أنظر يا عزيزى إدريس من حولك.. فكل شئ أمامنا فى صفاء الأرض والسماء.

تطلع إدريس إلى الأرض وطالع أسراب. "أبو قردان" وهي تتناثر علي مساحات اليابس بحليب لونها الأبيض فعقب قائلاً:

- جميل حقا أن يسود اللون الأبيض والأخضر هذه المساحات الرحيبة.

وضع هاشم يده علي كتف إدريس وقال وهو يضاحكه.

- الدنيا بيضاء فى خضراء كما قلت فسر علي بركة الله فى أمر هذا الزواج وتوكل فيه علي الله.

قطع الحديث صوت خليل وهو علي حماره يحمل بين يديه صنية من الطعام :

- إيدك يا شيخ إدريس. ساعدني فى النزول.

واسترسل يقول وهو ينزل من علي مطيته:

- أختك عزيزة يا هاشم أعدت لك ما تحبه.

- أكل يوم علي هذا الحال؟! هون عليك وعلي أختي عزيزة.

أم هاشم قد لا يعجبها ذلك.

- بل هي سعيدة وراضية.. وعلي العموم كل ذلك من خيرها.. فلن يمر يوم وإلا وترسل إلينا ما لذ وطاب .

- بارك الله فيكما.

وأكلوا هنيئا وشربوا مريئا ثم انصرف الثلاثة إلى القرية وكانت الشمس فى موكب الرحيل تلم شمل حضورها.. والأفق بفتح بوابات الولوج . والحقول علي مرمي البصر قد انفضت من زوارها ولم يبق إلا أصداء غناء فتحية يتردد فى الأنحاء كلها.

- أتعود إلينا بعد هذا الغياب الطويل يا أخي عمار؟! لقد وحشتنا كثيراً يا أخي العزيز.

ويرد عمار فى أسي:

- أعود حاملاً معي هموم الدنيا كلها يا نعمات. المرض والحاجة، وفقد الزوجة ويتم ابنتي الحبيبة بعد موت أمها .

ويطالع عمار ما حوله بعينين متعبتين ويمضي قائلاً :

- لا أدري . أيكون الندم بعد هذه السنين الطويلة علي هذه الغربة.. وفراق الأهل؟!

ويزم شفتيه فى عصبية :

- كان البحث عن لقمة العيش يا نعمات .

- لقمة العيش يا عمار كانت موجودة هنا. ولكنك كنت تحب الترحال والسفر.. والبعد..والفراق .

تتراكم الدموع فى عيني عمار ويسترسل:

- بالفعل كانت موجودة وما قلتيه هو الصحيح إنه الحقيقة التي اكتشفتها بعد فوات الآن.

- المكتوب علي الجبين تراه العين.. لا تفكر فى هذا الأمر كثيراً حتى لا تجهد نفسك يا أخي الحبيب .

ويسكت عمار مليا ثم يقول وهو يدقق البصر فى وجه أخته :

- وصيتي إليك يا نعمات .. هي ابنتي "وداد" فهي الآن وحيدة .. ويتيمة . ويضيف باكيا :

- أنا الآن أشعر بدنو الأجل .. وحتى لا تكون وحيدة فى هذه الدنيا فأجعلها بجوارك دائماً .

تقبض نعمات علي يد أخيها عمار وتكابد هي الأخرى ما يكابده من عذاب وشجن فتمضي قائلة :

- لا تقل ذلك يا عمار أطال الله فى عمرك يا أخي العزيز.. وداد في قلبي وهي ابنتي الثالثة .

ويرنو عمار طويلا فى وجه أخته نعمات ثم يقول:

- كل ما فيك رائع يا نعمات.. الآن أسأل نفسي كثيراً لماذا تركت هذه القلوب المضيئة الودودة . ؟!

ويقطع حديثهما مجيئ صفية وفي صحبتها وداد فتنتصب نعمات واقفة وبمشاعر عارمة تأخذ ودادا بين ذراعيها وتقبلها وتردد: جاءت وردتنا الفواحة .

وتجلسها بجوارها وتربت علي كتفها . ويقاوم عمار فيضا من الوجد قد اعتراه بشدة.. ويمسح دموعه بظهر يده فتقول ابنته وداد وقد أوجعها ما في والدها .

- لم كل هذا البكاء يا أبي الحبيب ؟! أنا سعيدة كل السعادة وأنا بجوار عمتي وأبنائها الكرام .

تتواري عذابات الشجن عن وجه عمار فيعقب لاهث الأنفاس:

- الحمد لله.. أنا الآن سعيد السعادة كلها بعد أن سمعت هذا الكلام منك يا ابنتي الغالية.

تأخذ نعمات أخاها من يده وتمضي به إلى حجرته وتقول له في مودة:

- أرح نفسك هنا حتى ترتاح ابنتك أيضاً يا أخي العزيز.

- بارك الله فيك من أخت بارة محبة ودودة.

وتستأذن نعمات من أخيها عمار وتعود إلى ما كانت عليه فتجد هاشماً قد حضر وجلس مع وداد وصفية فيمرح قلبها سعادة وتقول:

- إلي تجهيز الطعام يا صفية.

وعندما تهم وداد واقفة لمساعدة صفية تسحبها عمتها من يدها وتمتم قائلة:

- هون عليك من التعب يا وردتنا الفواحة.

ويسأل هاشم ودادا:

- هل أسعدتك قريتنا؟!

وفي صوت عذب تقول:

- كل ما فيها جميل ورائع.

- ألا تتذكرين طفولتك فيها؟

وتومئ وداد برأسها إلي الأرض وترد هامسة:

- ومن لا يتذكر أجمل أيام العمر.

وتسيح ومضة من نور بهي علي وجه هاشم فيعقب

- كثيرون تشغلهم حياة المدينة

- كل ما كان فى قريتي مازال منقوشا فى قلبي.

وتلقي بنظراتها إلى هاشم وتسترسل:

- وكل شبر فى هذا المنزل العامر أراه مضيئاً فى ذاكرة عمري.

"إنها مازالت تحتفظ بهذين العينين النجلاوين والوجه الوديع الصبوح الطيب. نظراتها تسبر أغوار نفسي.. تشعل كل ما هو ساكن فى قلبي. مرحبا بك يا ابنة خالي العزيز فى دارك الجديدة"

تخرجه وداد من وهده تفكيره بقولها:

- الأشياء العزيزة تبقي فى النفس كالوشم فى ظاهر اليد.

يصحو هاشم من تيه ما كان فيه.. ويعقب.

- أي بلاغة تلك يا وداد.. يبدو أنك تحبين القراءة كثيراً. وهذا ما كنت أسمعه عنك من خالي العزيز.

- الكتاب كان هو السلوى الوحيدة فى غربتي عنكم وتخضل عيناها بقطرات من العبرات وتسترسل:

- ثم كان السلوى العظمي بعد موت أمي.

ويهتز هاشم من الأعماق إنه أمام هامة شامخة من النساء. رغم هذا الهدوء والوداعة والرقة. أي درب هذا الذي أقف علي أول عتباته؟! أي طريق هذا يا هاشم أتستقيم أمامك الدروب؟!

ويصحو هاشم من تفكيره علي صوت أمه وهي تدعوه هو ووداد إلى تناول الطعام .

❖ ❖ ❖

قالت نعمات وهي تكابد حزنا شديداً:

جاء خالك عماد وفي سرعة البرق رحل.. كالطيف الخاطف للعيون رد هاشم مسريا عنها:

- هذه هي مشيئة الله يا أم هاشم.. فالحمد الله أن كان بيننا. حتى لا يموت غريباً مثلما عاش غريباً وهذه نعمة نشكر الله عليها .

- صدقت يا ولدى الحمد الله أن ترك لنا بقية من عطره الفواح. وهذا ما يجب أن نحمد الله عليه.. ولكن يا حبة عيني كيف نداوي حزن وداد الشديد علي والدها؟!

- علمت من صفية أنها الآن تتماسك يوما من بعد يوم.

سكتت أم هاشم مليا ثم عادت تقول وهي تصوب نظراتها إليه.

- ولكن لن يتم هذا التماسك.. إلا..

قاطعها : إلا إذا تزوجت ومن الله عليها بالزوج الذي يقدرها والولد الصالح الذي يملأ عليها الفراغ .

- هذا تماما ما كنت أريد أن أقوله لك.. وكأنك تكشف ما في قلبي وعادت إلى الصمت ثانية ثم قالت بصوت هامس:
- ومن يكون هذا الزوج الذي يملأ قلبها بالحب والحنان حتى ينسيها ما هي فيه؟
- ألف من يتمناها يا أمي وأظن أن الذي سيتزوجها سيكون من أسعد الأزواج .
- صدقت يا ولدي .. ولكن لا أريد من هذا الألف إلا واحدا أتمناه أن يكون هو هذا الزوج .

أطرق هاشم مفكراً ثم مضي يقول وهو يضاحك أمه :

- قصري الحديث يا أمي.. وتكلمي بصراحة .
- أعرف أنك تعرف ما أقصده .
- بالتأكيد أعرف ذلك .
- إذن من يكون سعيد الحظ هذا الذي يحقق هذا الأمل .
- منذ أن بدأت الحديث وأنا أعرف ما الذي تقصدينه يا أمي العزيزة وأنا لا أمانع بل أوافق تمام الموافقة أن تكون وداد زوجة لي وبلع ريقه واسترسل فى هدوء .

- ولكن أريد ألا تستغل ظروفها ونفرض عليها هذا الموقف أتمنى أن توافق هي أولاً وأن يكون ذلك نابعا من قلبها فأكون بذلك مرغوبا وتكون هي أيضاً مرغوبة لأنها لا تستحق إلا ذلك انتصبت أمه من مكانها واقفة وراحت تمطره بوابل من القبل وتعقب:

- يالك من ابن عطوف ودود تعرف كل ما يريح النفس والقلب.

- ما أفعله يا أمي هو الواجب ولا شكر على واجب وهو فى نفس الوقت الحق والصدق واليقين يا أمي العزيزة.

تهلل وجه أم هاشم بشرا وأخذت تردد: إننا لم نفقد أبا العزم أبدا إنه مازال موجودا بيننا.

قبل هاشم راس أمه ثم أخذ بردة أبيه وبسطها على كتفيه وأحكم فتحات ثوبه الصوفي الباهر. بدأ وسيما مشرق السمت فقالت أمه وهي تملأ عينها منه:

- وإلى أين العزم يا ولدى الحبيب ..؟

- أنسيت أن أدريسا قد تزوج وحان الآن الوقت لأقوم بزيارته.

- كيف أنسى ذلك الصديق العزيز يا هاشم؟! أذهب إليه وسوف أزوره أنا والبنات فيما بعد.

خرج هاشم.. والشتاء يستنفر معالم ما فيه والسماء تنذر بالمطر.. والرياح تضرب الأشجار بقبضات شديدة . الطريق إلى إدريس يقبع فى الحواري الضيقة غير أن إدريس يستحق الزيارة

رغم رعونة الطقس.. سار فى الحواري.. ثم توقف علي صوت عذب .. تزايل من القرآن الكريم انسابت من بيت إدريس وقف يرهف السمع. وبعد ذلك شعر بدفقه من نور تسري بين حناياه.. تقدم إلى البيت ودق بابه انفتح الباب علي مصراعيه طالع هائم وجه إدريس نديا.. مخضلاً الدموع. تعانق الاثنان، أخذه إدريس إلى حجرته وجلسا أمام مدفأة تتوقد جمراتها من حطب الشتاء والصيف. ألقت جمرات النار بنور وهجها علي الوجهين بدا الوجهان ينعمان بالسكينة قال هاشم:

- ألف مبروك يا أخي العزيز.. كان عرسك رائعا.. وكان صاحباه هما أعظم ما فيه ومن فيه.

- شكراً علي هذا الإطراء الصادق.. وصحيح كانت العروس رائعة وهي الآن بعد الزواج الأروع والأعظم يا أخي هاشم.

- إنها من بيت طيب وابنة رجل كريم النفس.

- هذا صحيح .. وكنت من قبل أعرف مقدارها. وبعد أن جاءت إلى بيت الزوجية عرفت عنها كل ما هو جميل وحسن.

- وأمك كيف حالها الآن؟

- أدخل معي وستري بعينك حالها.

واصطحب إدريس هاشماً إلى حجرة أمه رأي هاشم العروس وقد جلست ملتصقة بأمه وأمه تضع رأسها علي صدرها والعروس

تلقم لها الطعام بحنان بالغ وتقبل رأسها وتدعو الله لها بالشفاء العاجل. أحنى هاشم رأسه وألقي عليها السلام، ردت أم إدريس السلام بقلب مشرق بالسعادة، وجعلت تتمتم بشفتيها بنعم الله التي لا تحصى ولا تعد. تقدم هاشم إلى أم إدريس وقبل رأسها.. وكل ما فيه يفيض بالفرحة.

عاد الاثنان إلى موقد النار.. قال إدريس وهو يقلب جمرات اللهب بعود من حديد:

- أليس من حقي أن أهنأ بهذا الزواج وأحمد الله كثيرا على هذه النعمة المباركة؟

- . أجل لك أن تهنأ وأن تسعد فهي نعمة لا تقدر بثمن وسكت هاشم مليا ثم عاد يقول بصوت هادئ:

- وهذا ما يجعلني أن أبوح لك بما في صدري:

- تكلم يا هاشم فالحياة لا تكون صحيحة إلا إذا عرف الإنسان ما فيها.؟

- أسأل الله أن أكون سعيدا مثلك: مقيدا فى هذا السجن الذهبى قاطعة إدريس على عجل:

- بل قل فى هذا السكن الطيب ففيه المودة والرحمة .

أطرق هاشم هنيهة ثم قال:

- وداد ابنة خالي عمار "رحمة الله عليه" لقد عقدت العزم علي الزواج منها.

اتسع وجه إدريس بابتسامة عريضة زهت إشراقاً بوهج جمرات النار المنعكسة عليها فقال وهي يربت علي كتف هاشم:

- والله هذا ما توقعته ودعوت الله العزيز الكريم أن يحقق لك المراد فيه. لأنها أهل لذلك وأنت أيضاً أهل لذلك.

وجعل إدريس يفيض لهاشم بالحديث العذب وهاشم يستمع إليه إلي أن انصرف هاشم من عند صديقه ممتلئا بالمشاعر الجياشة. وكانت السماء قد بدأت تفك حجب السحب والسحب أفرغت كل ما لديها. دخل هاشم منزله وقد أصابه من المطر ما أصابه.. وفجأة وجد ودادا تقف فى ساحة الدار وما أن رأته حتى جرت إليه وقالت وكل ما فيها تفيض بالدفء.

- تأخرت علينا كثيراً.. يا هاشم حتى عرضت نفسك لهذا المطر واسترسلت تقول وهي تقترب منه أكثر:

- لا تفعلها ثانية يا ابن عمتي العزيزة الغالية. قبض هاشم علي يدها ورد وكل ما فيه ينطق بالأحاسيس الصادقة.

- لن أفعلها ثانية يا وداد يا عزيزتي الغالية.

❖ ❖ ❖

- يزداد فضل عمتي علي يوماً من بعد يوم يا عزيزتي عزيزة

- إنك ابنة أخيها وما يحدث هو الواجب وصلة الرحم يا وداد. هذا بالإضافة إلي ما تحمله لك من حب كبير.
- أرحتني كثيرا طريقتها تلك.
- أمر طبيعي أن يأتي ابنها هاشم ليخطبك منها والمسألة أننا جميعاً أسرة واحدة ويجري فى عروقنا دم واحد.
- كان يشغلني كثيرا هذا الأمر. مع من أكون يوم أن يأتي الرجل الذي يخطبنى بعد موت أبي الحبيب ؟! أبي الذي سقاني الحنان كله بعد موت أمي. وأنا الآن أعيش اليتم كله يا أختي العزيزة.

وتتقطر الدموع من عيني وداد فأنخت إليها عزيزة وقبلت رأسها وربتت علي كتفها وقالت وهي تغالب مشاعرها التي تفيض بالشجن:

- نحن كيان واحد.. أسرة واحدة والدم الواحد يجري فى عروقنا يا وداد.
- ورسمت عزيزة علي وجهها ابتسامة سرعان ما اتسعت وتألقت فاسترسلت :
- المهم .. وهذا هو الذي يعنينا جميعا وأولنا فيه هاشم.. هو: هل تقبلن هاشماً عن رضا وطيب خاطر؟ أم أنت قبلت هذا الأمر مجاملة لنا .

قاطعتها وداد علي عجل:

- هاشم تتمناه أي فتاة يا عزيزة فهو شاب ولا كل الشباب رجولة وشهامة وعزة نفس.. وحنان وكرم ومودة.

وسكت هنيهة وعادت تقول وقد أحمر خداها خجلا:

- أصارحك القول.. أنني منذ أن دخلت هذا البيت تمنيت أن يكون هاشم هذا من نصيبي.

- أنا الآن سعيدة السعادة كلها يا وداد بقولك هذا النابع من قلب صادق نقي .

دخلت نعمات عليهما وسط ولديها سالم وشهاب وتساءلت ضاحكة:

- فيما كنتما تتحدثان؟! لقد توقفتما بعد دخولنا عليكما .

ردت عزيزة:

- لقد تهيأنا لاستقبالك يا أمي العزيزة.

وأضافت وداد:

- وحل علينا الآن نورك يا عمتي الحبيبة.

قالت نعمات وهي تحدق فى وداد طويلاً:

- خير البر عاجله .. يا ابنة العزيز الغالي .. الأسبوع القادم سيكون الزفاف بميشيئة الله .

وأضاف سالم :

- وستحي عرسك علي أحسن ما يكون.

وعقب شهاب:

- لقد حلت علينا بركات كثيرة يا وداد منذ أن جئت إلينا.. تخرج أخي سالم من الجامعة.. ودخلت كلية الطب وفعل أخي هاشم ما فوق استطاعته ليحقق هدف دخوله كلية الطب.. هذه الكلية التي تمني أخي هاشم دخولها ثم ضحي من أجلنا وحرمها علي نفسه من أجلنا.

واسترسلت عزيزة:

- ويكون هاشم بهذه الزواج قد أتم الرسالة علي خير وجه.

ردت نعمات وهي تكابد مشاعر ممتلئة بالشجن:

- بالفعل يكون هاشم قد أدي الرسالة علي أفضل ما يكون يا أولادي الأحباب.

وأطرقت نعمات مليا وعادت توزن مقاطع الكلمات:

- ولولاه ما وصلنا إلي ما نحن فيه اليوم.

وفاضت عيناها بالدموع.. فالتف من حولها أولادها وراحوا يمطرونها بالقبلات ويقولون فى صوت واحد:

- وكنت أنت لنا السند القوى والأمين يا أمنا الحبيبة.

وعلا من علي قرب صوت هاشم وفى صحبته خليل وإدريس والتقي الجميع بالجميع وعمت الفرحة، وتتابعت أصوات

القادمين من فتيات القرية وهن يزغردن مقاطع من أغنيات حارة سخية وعلي رأسهن كانت فتحية.

أخذ هاشم أخويه وصهره خليل وإدريس ودخلوا مندرة الدار التي سرعان ما غصت بالشيوخ والرجال والفتيان من أهل القرية.. وفاض الحديث عطرا ومحبة ومودة وظل الأمر علي هذا الحال إلى أن انفض الناس.

اختلي هاشم بنفسه.. فكر ودبر.. ثم صعد إلى سطح الدار وطالع السماء الرحبة. ارتسم فى عينيه هلال الشهر العربي وهو يحل فى المنتصف منه بدرا جميلا رائعا.. يتألق نورا فى النجوم والأنحاء كلها. "الآن كل شئ يتجمل أمامك يا هاشم.. أخوتي سدد الله خطاهم إلى الطريق الصحيح.. وأمي تغزل الأفراح كل يوم.. وصهري خليل زوج شقيقتي العزيزة عزيزة يثبت كل يوم أنه أكثر أخلاصاً ووفاء وحبا لزوجه ولأسرته ولنا جميعاً" بدأ كل ما في الكون يتألق بآيات الله الوضيئة "سيأتي اليوم قريبا الذي تكون فيه مع وداد.. مع تلك الفتاة التي حلت علي دارنا فكانت لنا جميعا كالبلسم الشافى . ابتسامتها تخلب اللب أنها روح عذبة وديعة رقيقة رهيفة . ما أجمل وجهك الصبوح الندي يا وداد أيها القلب الأتي إلى"

ويسكت هاشم وينصت مرهف السمع إلى القرية كلها وهي ترسل تسابيح السماء.. والقمر فى الأعالي قد تجلت إشراقاته بعد أن عم نوره فى المرامي كلها .

❖ ❖ ❖

جاءت تحمل بين يديها "صينية الإفطار" وكل ما فيها ينطق بالحسن "شهيا هذا الذي تحمله لذيذا ذلك الذي سيأكله ، ما صنعت شيئاً وإلا وكان الشهد بعينه. مالت إليه انسدلت خصلة من شعرها علي وجهها المتنساق مع بعضه البعض ، وقالت:

- تأخرت عليك بالطعام يا هاشم .

قبض هاشم علي يدها وأجلسها بجانبه واحتوى كتفيها بذراعه، وجعل يداعب خصلة من شعرها ثم قال وكل ما فيه ينبض بالمشاعر الجياشه :

- كم يوما مر علي زواجنا يا وداد .

- شهر بالتمام والكمال .

ويشد ذراعه وتلتصق به أكثر ويسترسل :

- مر كومضة نور العين.. كأغنية عذبة السمع .

- ولهذا تأخرت عن شئون الأسرة ومشاغل الحقل .

امتلأ وجهه بابتسامة مشرقة وردد هو يمد يده إلى الطعام :

- قالت أمي نعمات. أم هاشم "يعني" وعمة الحبيبة وداد. قالت وقتك ملكك وبين يديك وكلما أمضيته مع وداد كلما شعرت بالسعادة يا هاشم .

- أتهمل الأسرة والأخوة.. وأيضاً أتترك الحقل؟! هذه واجبات ضرورية يا عزيزي هاشم .

- وأداء الواجب معك يا وداد هو أيضا من الواجب الذي أتميز به

اتسع وجهها بالنور.. مدت يدها إلى الطعام وأخذت ما فيه إلى فمه وقالت بدلال:

- خذ هذا مني ..

أخذ ما أعطته بفمه.. لاك ما قدمته وداد وكأنه من نبض روحها جري الطعام فى جسده بين الدم والعروق واللحم والعظم هنيئا يبوح بسر ما فيه. "أي امرأة تلك يا هاشم؟ إنها من سلالة الملوك العظام. إنها أميرة من أميرات الأساطير المجنحة بالطهر والصفاء والنقاء"

مالت برأسها إليه وحدقت فيه طويلا ثم قالت بصوت عذب:

- فيم كنت تسرح يا هاشم؟!

انتبه إليها ولملم شمل نفسه وأجاب وهو يغازل كل ما فيها:

- اللقاء معك دائماً يا وداد . يكون الحقيقة الساطعة كنور الشمس

- أفلسفة هذه يا هاشم؟!!

- بل هو الحب والوجد والصدق يا وداد ساعة صفاء النفس.

ابتسمت بملء فمها وعقبت:

- إياك أن تنسي مهمة هذا اليوم. إنه يوم دراية حصاد القمح لقد قام خليل بالحصاد وعليك أن تساعده فى الدراية فى هذا اليوم ورمقته مليا ثم مضت تقول بنظرة حالمة:

- وهذا أيضا هو واجب ساطع كنور الشمس .

قام هاشم .. وأعد عدته للخروج وكل ما فيه يمتلئ بالنعيم قابلته أمه وأخته صفية فى ساحة الدار مال علي يد أمه وقبلها وانحنت إلى رأسه وقبلته .

تساءل هاشم فى أدب جم:

- أتأمرينني بأي شئ أفعله.. قبل الذهاب إلى الحقل؟

- فى رعاية الله يا ولدي الحبيب .

فتحية فى الحقل ما برحت تغني وزغلول بجوارها ما أنفك عنها.. يمد لها يد العون، صارت أغنياتها هي قيثارة للقرية كلها وكان الصباح الندى ما برح يهب للرياح قطرات العطر الفواح.. والشمس تهب للأرض النور والدفء .. والدواب فى كل مكان من الحقول المترامية.. وخليل فى ذلك الكدح الميمون قد شمر عن ساعديه ينبض بالحيوية والنشاط ، والفلاحون من حوله

أخذوا يجمعون حصاد القمح وما أن رأي خليل هاشما حتى قال ووجهه يتهلل بالبشرة

- المحصول هذا العام طيب للغاية يا هاشم .
- الحمد الله.. هذا بفضل الله الكريم الرزاق .. وبفضل جهدك وعرقك يا خليل دار المكن الدوار .. يطحن خصلات أعواد القمح، وحبات القمح تجري على الأرض وأيدي الفلاحين تتسابق هناك وهناك. وبالمحصول وقد علا وزاد وعمت الفرحة الجموع المحتشدة. وحمي وطيس العمل، وتعفرت الوجوه بإفرازات المكن الدوار.. تلبس أصحابها أثواباً من الكد والكدح والعرق. والرجال يتمتمون ما بين الحين والحين مع دقات "ماكينات" الحصاد .

رنا هاشم إلى المرامي من حوله.. وجد كل ما فيها يبوح بما أتاه حقله.. لقد خرج الذهب المكنون فى ضلوع الأرض.. تباهي بلونه العسجدى . وحومت الطيور التي فى كل لون وشكل جاءت أسرابا تلتقط أرزاقها وتملأ حواصلها بخير ما في الأرض .

دارت عينا هاشم مع الطيور وهي تدور وتحط.. وتمد مناقيرها فى غلال التبر "سبحانك اللهم ربي. يا واسع الملك.. يا كريم العطاء لكل مخلوقاتك .. كل شئ خلق بما قدر له يا هاشم.. الزمان يتوالى يا هاشم وتدور معه حركة الحياة بقدرة

الخالق القادر القابض المهيمن .. يا باسط النعم علي العباد. دام حمدك وشكرك"

أقبل إدريس يمور وجهه سرورا ويقول:

- الله بسط الرزق علي أبناء قريتنا كلها فى هذا العام يا هاشم.

ويجري خليل إلى هاشم ويوقفه عن العمل ويقول:

- يكفيك هذا اليوم يا هاشم.. أنت مازلت عريسا.

ويأخذه إدريس من يده ويجلسه تحت ظل شجرة شذية ويقول وهو يضاحكه :

- قضيت عمرك فى العمل والتعب فيكفيك بالفعل هذا اليوم يا هاشم.

مد هاشم ساقيه علي الأرض واستسلم للراحة وطفق بطالع ما حوله الناس تمور بالنشاط.. والحقول.. تمتد رخاء.. والأغنيات الجميلة تصدح فى النواحي كلها، ويظل الحال علي هذا الحال إلى أن تسحب الشمس زمانها المقدر لها بعد أن آب موعد رحيلها، والفلاحون حملوا علي الدواب أثقال حقولهم. ويغص الطريق بالحركة ، حملت الدواب أجولة الحصاد.. وفي هذا العرس الكوتي الرائع أخذ هاشم وخليل وإدريس طريقهم مع الأهل والرفاق إلى موطن الدور التي تحلم بذاك المجيئ وكانت ياقوتة الشمس آنذاك قد توارت فى مضجعها الكوني الرائع .



"الأيام تمر والسنون تتوالي وكل شئ يسير علي ما يرام يا أم هاشم .. غير أن الماضي الحبيب مازال فى قلبي حلوا نديا.. صوره تترائي فى عيني بالمعاني الجميلة" وتمضي أم هاشم تخاطب نفسها بأنه موجعة وهي تطالع بوابة الدار العتيقة: "لن أنسي زوجي أبا العزم أبدا كيف أنسي هذا الرجل الحبيب المهيب الذي ملأ علينا حياتنا.. آه من تلك السنين الفواحة بالعطر التي لا تنسي" ويؤذن ديك ثم تتوالي من بعده الديوك ويتحرك الصبح فى الأفق لامع الضوء يبعث نوره فى النواحي كلها .

تخرج أم هاشم من حجرة نومها وتجلس علي عتبة حجرة الخزين وتنظر إلى أجولة الغلال من الأرز والأذرة والفول والقمح ، وتفتح عينها علي هذا الخير الوفير الذي يعم علي الدار وعلي الأهل والأصحاب وتموج فى رأسها الذكريات وتشتد الخواطر عندما تقف عند حدود مرتسم وداد وتغوص فى أعماقها آهة مغمورة فى الشجن. "العقم هو حالك يا حبة عيني.. يا وداد يا حبيبة القلب.. كنت ترغبين الولد.. ليملأ عليك الدنيا.. ولكن شاءت الأقدار إلا تنعمين بنعمة الولد. فهذه مشيئة الله. فهذه مشيئة الله.. يا ابنة أخي الحبيب" وخيم علي أم هاشم حزن موجع وازداد عليها عندما رأت ودادا تقف أمامها .. وقد نحل عودها وانطفأ

وجهها وذايلته مسحة من الحزن الشفيف قبلت وداد يد أم هاشم وقبلت هي الأخرى رأسها وقالت وهي تخفي ما في صدرها:

- لماذا البدور كل يوم يا ابنتي العزيزة؟

- أصحو مع النور ليمنحني اله نور الصبر يا عمتي الحبيبة.

تكابد أم هاشم حزنها الدفين وتقول وهي تنزع الكلمات من أعماقها:

- الصبر سلوى المؤمن يا ابنتي والله مع الصابرين إذا صبروا .. وأنت خير من يتمسك بتلك الفضيلة .

- وتتقطر عينا أم هاشم بالدموع فتمسحها بكف يدها وترسم وداد ابتسامة علي وجهها وتقول والابتسامة تتسع رويدا.. رويدا.

- أثقلت عليك الأمر يا عمتي ما كان لي أن أفعل ذلك أبداً وهنا يمور قلب أم هاشم بمشاعر شتي.. فتعود إلى وداد وتقبل رأسها من جديد، وتبتسم لها وداد وتمضي إلى مشاغل الدار. ويعلو ضجيج الخواطر فى قلب أم هاشم ويعاودها هذا الهوى القلبي كلما سمعت هاشما أو ما يدور من حوله. هذا الهوى الممزوج بالوجع الشديد، ولا تدري سر هذا الأمر، هل لأنه الابن البكر.. وأول من اسعد هذه الأسرة؟ أم لأنه تحمل فى رجولة وكبرياء شئون أسرته بعد موت أبيه.. وتحمل ذلك فى

صمت ورضا تام..؟ أم لأنه ضحي بتعليمه وكان متفوقا دائما فى مدرسته ودروسه وضحي بالعلم والمستقبل من أجل أخوته؟ أم لهذا كله؟! أم لهذا كله يا نعمات.. يا أم هاشم؟!! ويتفجر قلبها حزنا.. عندما يكون كل ذلك ثم يحرم من نعمة الولد .. والغريب يا نعمات أننا كلما كلمناه فى هذا الأمر يبتسم .. ويقول لنا كلاما جميلا وكأنه يوعظ الناس فى شأن نفسه بالك من ابن بار.. نبيل .. مؤمن يا ولدى هاشم"

وتأتي وداد ثانية وقد جري دم العمل فى وجهها فعاد إلى وجهها بعض من ملامحه القديمة تأملت أم هاشم أرهاصة من نور تطل من الوجه المليح العذب وهي تقول:

- دقائق علي الفطور يا عمتي:

ويأتي هاشم ويقبل يد أمه وتقبل أمه رأسه.. ويجلس الاثنان ملتصقين ببعضهما البعض فيقول أم هاشم:

- وحشتنا صفية.. وأيضا أخوها سالم.. إنهما يعيشان فى غربة عنا . وتزفر زفره مرة وتسترسل:

- ما أقسى الغربة.. والبعاد .

ويسري هاشم عنها:

- هذا هو شأن الدنيا يا أمي كل إنسان يبحث عن رزقه وحياته وعن طموحات.. أكثر والكل تزوج والحمد لله وأنجب البنين والولد فشكرا لله على ذلك

- الدنيا تشغل من ينشغل بها يا ولدى هاشم.

وتحتويه بكل ما فيها وتمضي قائلة:

- وأنت يا نور عيني لماذا ضحيت بكل شئ.. ولم تشغلك الدنيا عنا نحن الذين شغلناك بها .. فانشغلت بنا عنها

وفى صوت هادئ عذب يقول هاشم.

- أنا سعيد بهذا.. ومؤمن بكل قضاء يأتى به الله يا أمي الغالية

- دائما تقول ذلك القول الجميل ولا تفكر إلا فينا

وتأتي وداد حاملة صنية الطعام.. ويتربع الثلاثة حولها.. ويأكلون هنيئا ويشربون مرئيا.. والطيور من حولهم تدور أسرابا.. وما أن فرغوا من الطعام حتى جلست نعمات أمام الدار.. وهذا ما كانت تفعله فى الماضي الحبيب عندما كان يغيب عن البيت وهذا المرة لا تدري السبب الذي دعاها إلى هذا الفعل.. غير أن الشيئ.. الذي تعرفه ويورق عليها حياتها.. هو هذا القلق الذي ينتابها ما بين الحين والحين على أبنها هاشم واليوم يتزايد عليها بصورة أشد .

❖ ❖ ❖

"أي هاتف هذا الذي يدعوني كل ليلة.. أنه يدوى فى أعماقي ويوقظ فى رأسي ذاكرة السنين الطويلة.. والآن يرسم فى مخيلتي كل الحكايات القديمة .. يفجر في أعماقي ما كان ساكنا عبر الزمان البعيد" ويخرج من داره إلي البراح وكان الليل آنذاك قد اقترب من منتصف عمره.. والقمر علي وسادة السماء يبوح بنوره والليل قد صار فى لون القمر.. وفي لون البهاء كله .

سار هاشم فى النواحي والمرامي، وكان كل شئ قد استكان وخضع وراح مسبحا لله الخالق البارئ المصور. ويلقي هاشم بنظره فى وجه السماء فيرى القمر يبهر كل عين تراه.. ويسطع فى أجواز السماء .

أخذه هذا الهاتف المدوي فى أعماقه إلى قلب السكون قدماه تأخذ مسارها من أرض إلى أرض ومن موضع إلي موضع حتى أتي إلى شاطئ النهر وفي قلب الماء رأي القمر يلقي بمرسمه فيه، والموج يسافر بين شاطئه في سكينة وهدوء.

يتوقف هاشم مليا ويحدق فى الموج المنسحب إلى رحلته فتمور فى رأسه الأفكار ويناجي نفسه بعد أن أخذه المشهد المهيب: "النهر يا هاشم يأتي من بحيرة منبعه الأول التي كانت فيها لحظات ميلاده وتدفعه دفاقا بين شاطئه بعد أن أخذ حليب مائه من رحيق الشمس" وهنا تسير أغوار هاشم ذكريات قديمة مضت

ثـم صـحت بعـد أن سـكنت فـى مسـتقرها المتـواري خلـف حجـب السنين. صحت وتوهجت وجددت ميلاد مولدها:

"ألم تشهد هـذا المشهد المهيب منذ السـنين الطـوال وكنت آنذاك فى خضـر السـنين وكنـت تقـول أيامهـا: إن الماء يأخـذ رحلـة عمره عبر آلاف الأميال.. يتسـع ويضيق ويتعـرج.. وأحيانـا ينقلب سـيولا.. ثـم يسـتقيم فـى رشـاقة تلـك هـي مسيرته.. وهـي مسـيرة.. موجـة مـن أمواجـه تلـك الـتي كنـت فيهـا تـركـز القـول والفكـر وكنـت تقـول وتلـك الموجـة كانـت تسـير مـع رفاقهـا الأمـواج حتـى تصل إلى ملح البحر.. وترسم هناك لسانا بطميه المذاب فى دفقات الموج.. ليكون رمـزا لوجوده وحدوده..وهناك عند هذا اللسان الطمـي يكون المنتهي لأن النهر يكون قد أكمل رحلته.. ووصل إلى منتهاه وهذا هو المنتهي .. وهذا هو المنتهي"

وتنتاب هاشم مشاعر شتي بين الصمت والخشوع والسكون وبـين الفكـر العـاتي الشـارد فى متاهـات الغيـب. ويتمـتم وهـو يلقـي بنظـره كلـه إلـي مـاء النهـر.. وفجـأة تصطدم عينـاه ببيـت يقـترب قليلا من النهر.. فيعتريه سعير ضرام السنين الـتي ولـت ويعـود إلى نفسه "أليست هذه هي دار ضحى؟ وأليست هذه القنطـرة هـي تلـك الـتي رأيهـا فـى ذلـك الزمـان الـذي ولـي واحتجب وراء السـنين.. لـك السلام والأمن والأمان يا ضحى.. وأنت فى رفقة زوجك وأولادك.. وأحفـادك" ويتأمـل البيـت طـويلا ويخـرج إليـه مـن رأسـه منصـور..

وذريته من الأولاد والأحفاد.. من البنين والبنات وينظر هاشم إلى السماء ويقول بقلب خاشع ندي "لك الحمد يا رب الأرض والسماء فأنت الأول والأخر وليس لك منتهي .

ويعبر الجسر الفاصل بين القريتين ثم ينتهي بصره إلي ذلك الجسر القديم الذي أجج فيه هذه الذكريات.. ويصل إلى قريته ويدخلها وقد بدت فى عينيه وضيئة رحيبة أخذ يشم شذي أشجارها وعطر أنفاسها ويفتح داره ويدلف فيه وكان الفجر.. قد تهيئ للمجيئ.. يندس إلى داخل حجرة نومه رأي زوجه ودادا التي صبت عصارة قلبها حبا له لأنها وجدت فيه القلب الودود الحبيب.. وهو الذى شرب من خمر شفتيها نفسه العطشى لقد احتوته بسجاياها وخصالها. وتدمع عيناه ويرف قلبه حزنا لحزنها وشجنا لشجنها رغم أنها تجالد بشجاعة وإيمان محنتها.. ويقول من أعماق قلبه: لك الأمن والأمان يا وداد.. إني أخاف عليك من ضراوة السنين.. ويتقدم إلي فراشها والمصباح يرسم علي وجهها بهاء ما فيه.. والشعر المرسل فى نعومه علي جانبيها.. الوجه مازال نديا رغم الحزن القابع بين اللحم والعظم مع الدماء والخلايا. تفتح وداد عينها علي وجه هاشم فتنصب قائمة وتقول فى وجل :

- أين كنت يا عزيزى طوال هذا الوقت؟!

يلثم علي شفتيها قبله حارة ويقول والدموع فى عينيه:

- دعاني الليل إليه" فذهبت إليه .

- تقول هذا الكلام كثيرا.. في الآونة الأخيرة يا هاشم .

وتسكت هنية وتصافح الدموع التي فى عينيه وتسأله:

- أتبكي ما أنا فيه يا هاشم؟!

- ينحني إليها ويقبل رأسها ويربت علي كتفها بحنان بالغ ويقول وكل ما فيه ينبض بالمشاعر:

- كيف تقولين ذلك .. وأنت كل شئ فى حياتي.

- أقول لك بصدق.

وينقطع صوتها ويخفت وتعود قائلة:

- تزوج حتى يأتيك الله بالولد يا حبيبي هاشم.

وتسترسل وقد أخذها الموقف:

- من حقك أن تفعل ذلك.. من حقك أن تهنأ بالذرية والولد ويضمها هاشم إلى صدره ويترك أصابع يده تسرح فى خصلات شعرها ويقول وهي بين ذراعيه :

- أي ذرية وأي ولد؟ كيف اعترض علي مشيئة الله يا وداد أنت كل شئ فى حياتي .

ترفع وداد رأسها من علي صدره وتمضي قائلة :

- قد تحب عمتي أن تري لها حفيدا منك. أنت الابن الأكبر لها وهذا هو حقها فيك يا عزيزى هاشم .

لا تتحدثين فى هذا الأمر بهذا المنطق فأمي تري فيك أخاها..
تراه فيك بين عينها كلما رأتك أمامها.. وإذا فعلت ما تقولينه
ستقاطعني ولن تغفر لي هذا الجرم وبل سيكون هذا اليوم إذا
فعلته هو يوم الحزن الأعظم فى حياتها وحياتي أنا أيضاً يا
حبيبتي يا وداد .

تأتي إليه وداد وتلقي برأسها علي صدره وتسيل عيناها أدمعا..
وكان الليل آنذاك يخلع عن نفسه آخر أثوابه والفجر يغسل اليوم
الأتي بفيوضات من شذاه الندي .

هم هاشم بالخروج فى الصباح وهو يعاني وجعا فى بدنه كله، فقالت له أمه:

- لم الخروج يا ولدي وأنت فى هذا الحال؟!
- هناك أمور يجب أن أنهيها وأنجزها فى هذا اليوم يا أمي.
- أمهلها للغد أو بعد الغد.
- لا أستطيع .. يجب الانتهاء منها فى هذا اليوم بمشيئة الله حتى تكون فى متناول أيديكم وأيضاً فى متناول أصحابها الآخرين فهذه حقوق يجب أن تصل إلى أصحابها.

وخرج هاشم والسماء توشي بالمطر والأنحاء تنذر بعربدة الريح.

❖ ❖ ❖

تطول ساعات النهار.. وتسحب معها الأوجاع والأفكار والشوارد ، تصعد أم هاشم على سطح الدار ما بين الحين والحين وتراقب فى الطريق عودة ابنها هاشم فلا يعود، ولا ترى إلا وجه السماء المكفهر ، والريح العاتية التي تعوي وتعصف بالأشجار وتقذف بأكوام الغبار . وتنزل إلى صحن الدار وتنادي أولادها فيهرعوا إليها فتقول لهم :

- أنتم الآن جميعا بين يدي .. دون أخيكم هاشم لقد طال غيابه

فيرد سالم:

- لا داعي للقلق يا أمي.. سيجيء سالما بمشيئة الله.

ويضيف شهاب:

- جئت خصيصاً لأقضي معه راحة الأسبوع.. فلا أجده وينتاب الجزع عزيزة فتقول لزوجها خليل :

- أذهب واستطلع سب غيابه .

ويخرج خليل وفي صحبته سالم وشهاب .

❖ ❖ ❖

ويشتد الأمر علي أم هاشم.. وتوغل فى الشوارد.. ثم تنتبه من غياهب هذا التيه علي جلبة فتنصب واقفة.. وتقترب منها الجلبة ثم يظهر هاشم بين أخويه ومعهم خليل وقد ذايله شحوب شديد جاء يكابد وجعا شديداً، وما أن راي هاشم امه حتى أ خذ يقاوم ما فيه من ألم. اندفعت أمه إليه وأمسكت بيده وجعلت تحدق فيه بجزع قال هاشم فى صوت متصدع :

- لا شئ يا أمي.. لا تقلي مجرد وجع بسيط .

سالت عيناها أدمعا وشعرت بروحه الموجعة تسري فى كيانها كله، فالتصقت به وأخذت بيده ووضعتها علي كتفها وسارت مع أخويه إلى داخل الدار. دلف هاشم إلى ساحة الدار.. اهتزت كل المرائي فى عينيه.. أخذ يحاول تثبيت عينيه فى كل

ما يراه فلم يستطع. اهتز جسمه كله.. قال لأخيه سالم بكلمات متقطعة:

- إلي حجرتي.. يا أخي.. العزيز .

سار هاشم ثقيل الخطو.. واهن العافية.. وما أن أتي إلى الفراش حتى هوي عليه كشجرة اقتلعت من جذورها .

❖ ❖ ❖

المرض يشتد علي هاشم ويزداد قسوة.. كل ما فيه يئن بالألم وأمه بجواره لا تنفك عنه وعيناها تسيلان أدمعاً ، تبكي وتئن كما يئن وتتوجع كما يتوجع.. وانعكس كل ما فيه عليها. وشهاب يلازمه ليلا ونهاراً .. يتابع حالاته بقلب يحترق ألما . وزوجه وداد تروح وتجئ مثقلة الخطي.. ذاهبة العقل جياشة بالحزن والدنيا كلها قد ضاعت من عينيها. وشقيقته عزيزة تكابد ما يكابده وتنزع الكلمات من أعماقها ولا تكف عن الدعاء بأن يشفيه الله ويعافيه.

تصحو عينا هاشم قليلا.. ويتمتم بصوت لاهث متصدع.

- لم البكاء يا أماه؟! أنا بخير والحمد الله علي كل ما يجئ به الله. ويمد يده ويسحب بها يد أمه ويقبلها ثم يقول بصوت خافت:

- دعواتك يا أمي الحبيبة.. أغفري لي كل ذنب ارتكبته فى حقك وتنهار أمه وينكسر كل ما فيها ويلمع بريق شارد من خلف نهر الدموع وتقول:

- أنت الذي تقول ذلك يا هاشم ؟!! أنت الولد الحبيب .. البار الودود الحنون الذي ضحى بكل شئ من أجلنا .

وتتنهد فى عذاب شديد ثم تعاود القول فى شجن جريح :

- سامحني يا ولدى إن كنت قد أثقلت عليك.. نحن بالفعل قد أثقلنا عليك.. لقد ضحيت من أجلنا بالكثير والكثير.. ضحيت بنفس صافية وقلب كبير.. ما أعظم قلبك .. يا ولدى . هاشم .

وتنحني إليه.. وبكل ما فيها من حنان تقبل رأسه .

تشع ابتسامة من نور بهي فى عيني هاشم فيقول بابتسامته تلك التي تلبس بجمالها كل وجهه:

- الحمد الله.. الحمد الله .

وتغيب عيناه فى التيه وتعاوده حمي المرض الشديد ويلتصق أخاه واختاه بالفراش من حوله وتعقب صفية فى حسرة:

- ما أقسي الغربة التي أبعدتنا عنك يا أخي الحبيب .. انشغلنا ببيوتنا وأولادنا.. وانشغلنا عنك يا نور القلب الحبيب .

ويبكي خليل بكاء مرا فترد عليه زوجه عزيزة وهي تبكي بكاء مرا:

- أتبكي معنا الحبيب الغالي يا خليل.. يا حسرتنا علينا فيه أيرحل عنا يا خليل؟! أيتركنا وحدنا فى هذه الدنيا؟!

يطبق خليل بيده علي فمها ويسيل الزبد من شفتيه.

وتهرول إليه زوجه وداد وقد لبس الحزن كل ما فيها. تنحني إليه وتقبله وتسيل العينان جمرات من الدموع.. وتحاول أن تتكلم فينحبس لسانها.. تتوقد الدموع فى عينيها.

تصحو عينا هاشم.. فيرى ودادا فى حالة ما هي عليه. فيناديها بعينيه فتلتصق به.. يأخذ يدها فى يده.. ويأخذ بالأخرى يد أمه.. ويضع الاثنين علي بعضهما البعض.. ويحدق فيها بنظرات كلها إشارات .. ورموز . يسرع شهاب إليه ويضع يده علي رأسه وتغرق عيناه فى الدموع .

وعن قرب يأتي إدريس وهو يرتل القرآن بصوت عذب فتنتظم أنفاس هاشم وتسرح فى وجهه ابتسامة سرعان ما تتسع وتتسع بالبهاء. ومن هذا الوجه يخرج السر الإلهي عن ابتسامة تشع بالنور. وتغوص الأهات في الصدور ينحني إدريس إليه ويسيل العينين ويضم الشفتين ثم يشد الملاءة البيضاء علي القلب الأبيض تموج ساحة الدار بالناس ويعلن الخبر فى القرية وفي القرى والكفور والنجوع من حولها توافد المعزون من كل صوب وحدب، ويا روعة ما كان عليه مشهد الرحيل المهيب لقد امتد من ساحة القرية إلى الجبانة التي تعلو قبورها ربوة عالية .

وأمام قبره وقفوا وأنزلوا جسده المسجي بالبياض .. أنحنوا به إلى أديم القبر ووسدوه التراب. وبعدها راحوا يوارون رمزه الباقي فى الدنيا. وجاء صحبة من الرجال الطيبين والتفوا حول القبر وأخذوا يقرأون آيات من الذكر ثم الحكيم.. وبينما هم فى خشوع وسكون جاء طائر من نوع غريب راح يحوم حول القبر ثم حط فوقه امتدت أعناق الناس إلى الطائر وجعلوا يحدقون فيه البصر فرأوه جميلا باهراً رياشه من لون الألوان كلها وهم فى روعة ذلك المشهد أنشأ الطائر يشدو بصوت عذب رهيف شفيف .

سبح الحاضرون وكبروا وهللوا وبينما هم فى ذلك الحال رفع الطائر جناحيه . وبرقت ألوانه كلها بالنور ثم اندفع الطائر إلى أعلا وظل يعلو .. ويعلو إلى الأعالي حتى صار إلى المنتهي.

((تمت))

الزقازيق:

سبتمبر سنة 1999



رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٦ /٥٤٠٣

الترقيم الدولى I.S.B.N

977-374-175-3

دار الإسلام للطباعة والنشر
٠٥٠ / ٢٢٦٦٢٢٠

٠١٢٢٦١٤٣٦٣